Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله وكفى ، وسلام على رسله الذين اصطفى ، وعلى خاتمهم المجتبى ، محمد بن عبد الله معلِّم الهدى ، وإمام الورى ، وعلى آله وصحبه أئمة التقى ، ومصابيح الدجى ، الذين بهم يقتدى فيهتدى .

(أما بعد) . .

فهذه طبعة جديدة ، منقحة ومزيدة ، من كتابي : (السُّنَّة مصدرًا للمعرفة والحضارة)، بعد الطبعة الأولى المحدودة ، التي نشرها مركز بحوث السنَّة والسيرة النبوية بجامعة قطر . الذي أتشرف بادارته .

ويسرني أن تقوم بنشر هذه الطبعة (دار الشروق)، التي أسسها صديقنا الناشر الكبير ، الأستاذ محمد المعلم رحمه الله . والذي تعرفت عليه منذ أسس داره الأولى للنشر في مصر : (دار القلم)، وقامت بنشر كتب شيخنا الإمام الأكبر العلاّمة الشيخ محمود شلتوت رحمه الله . وكنت مكلفا ـ أنا وأخي أحمد العسال ـ من قبل أستاذنا الدكتور محمد البهي، بجمع تراث شيخنا شلتوت من مظانه المختلفة من المجلات والصحف وغيرها ، وإعداده للنشر، والإشراف على إخراجه وتصحيحه .

هذا، وقد نشرت لي (دار الشروق)، منذ بضعة عشر عامًا : كتابي : (الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف)، كما نشر لي فرعها في لندن : الترجمة الإنجليزية لكتابي : (الحلال والحرام في الإسلام) .

وأرجو أن يكون نشر هذا الكتاب باكورة تعاون جديد مثمر بيننا، إسهاما في توعية أمتنا، وتجلية الحقيقة التي ننشدها، وخدمة الرسالة التي نذرنا حياتنا وطاقاتنا لإعلاء كلمتها ، وهي : رسالة الإسلام ، الذي شرفنا الله تعالى به ، وأتم علينا به

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النعمة ، وكشف الغمة ، وأزاح الظلمة ، كما قال تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ (سورة المائدة : ٣) .

كما أرجو أن أكون بهذا الكتاب ــ الذي يجلي حقائق السنة المحمدية وآثارها ـ في زمرة من يحب الله ورسوله ، ومن يحبه الله ورسوله ، وممن يتولى الله ورسوله ، ويتولا الله ورسوله ﴿ إنما وليُّكم اللهُ ورسولُه والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ، ومن يتولَّ اللهَ ورسولَه والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ : (المائدة : ٥٥ ، ٥٦) .

ربيع الأول سنة ١٤١٧هـ .
أغسطس سنة ١٩٩٦ م .

يوسف القرضاوي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وبفضله تتنزل الخيرات ، وبتوفيقه تتحقق الغايات، له الحمد ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما شاء ربنا من شيء بعد .

والصلاة والسلام على معلم البشرية ، وهادي الإنسانية ، الذي أرسله الله رحمة للعالمين ، وحجة على الناس أجمعين ، ليتمم به مكارم الأخلاق ، ويخرج العالم من الظلمات إلى النور، ويهديهم صراط الله المستقيم ، وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

(أما بعد) :

فقد تعارف المسلمون خلال العصور المتطاولة ، واستقر في معارفهم المتوارثة . أن السنة النبوية هي المصدر الثاني للتشريع في الاسلام بعد القرآن الكريم، كما هو مقرر في (علم أصول الفقه) ؛ على اختلاف المذاهب ؛ وتعدد المشارب . وصنفت في ذلك كتب شتى في القديم والحديث ، وهو أمر لا خلاف عليه بين المسلمين كافة ، من كل من رضي بالله ربًّا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسولاً .

أما الموضوع الذي نتحدث عنه ـ وهو السنة مصدرًا للمعرفة والحضارة ـ فهو أمر جديد على العقل المسلم ، وإن كان له جذوره في تراثنا ، ولكنها جذور غائرة في الأعماق ، تحتاج إلى نبش وكشف عنها ، حتى تظهر للعيان ، وتتبين للناظرين ، وهو مما عُني به إخواننا في (المعهد العالمي للفكر الإسلامي) في واشنطن ، وطلبوا إليَّ الاهتمام ببحثه ، فكان هذا الكتاب ، الذي نشر طبعتَه الأولى (مركز بحوث السنة والسيرة) بجامعة قطر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن الله تعالى ذكر وظائف (الرسالة المحمدية) في أربع آيات من كتابه ، في كل منها ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكمَةَ ﴾ (البقرة : ١٢٩ ، وآل عمران : ١٦٤ ، والجمعة : ٢) وفي واحدة منها زيادة ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعلَمُونَ ﴾(البقرة : ١٥١) فالجانب المعرفي التعليمي هو جزء من المهمة النبوية .

وتعليم (الكتاب) أخص من تلاوة الآيات، فهو يعني الشرح النظري والتطبيق العملي للقرآن، وهو البيان الذي وكل إلى النبيﷺ ﴿ وَأَنزَلنَا إِلَيكَ الذِّكرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيهِم وَلَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل : ٤٤) والحكمة : إما نظرية ـ وهي معرفة الحقائق على ما هي عليه ـ أو عملية ، وهي وضع الشيء في موضعه المناسب .

كما أن الله بعث رسوله الكريم ، ليصنع به أمة ربانية متميزة ، سماها الله ﴿أُمَّةً وَسَطا﴾ (البقرة : ١٤٣)، و ﴿ خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَت لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران : ١١٠): وهي أمة (الصراط المستقيم) صراط التوازن والتكامل بين المادة والروح ، بين الدنيا والآخرة ، بين العقل والوحي ، بين المثالية والواقعية ، بين الفردية والجماعية ، بين الحرية والمسئولية ، بين الإبداع المادي والالتزام الإيماني، فقامت على أساس هذه التعاليم حضارة عالمية فذة ، جمعت بين الربانية والإنسانية ، بين العلم والإيمان ، بين الرقي والأخلاق ، هي الحضارة الإسلامية التي سادت العالم قروناً ، واقتبست من حضارات الأقدمين ، وهذبتها وأضافت إليها ، وابتكرت الجديد المفيد في علوم الدين ومعارف الدنيا .

فلا عجب أن يجد الباحث المدقق في مصادر السنة الكثير الطيب ، مما يشبع نهمه ، ويلهب حماسه ، في مجال البحث عن السنة بوصفها مصدرًا للمعرفة والحضارة .

وقد قسمت هذا البحث ثلاثة أقسام رئيسة :

القسم الأول : عن الجانب التشريعي في السنة ، وبيان ما كان منها للتشريع ، وما ليس للتشريع ، وما كان للتشريع العام ، وللتشريع الخاص ، أو للتشريع الدائم وللتشريع العارض . وحاولت أن أقف هنا الموقف الوسط بين الغلاة والمفرّطين .

والقسم الثاني : عن السنة باعتبارها مصدرًا للمعرفة ، سواء أكانت معرفة دينية ، تتعلق بالغيبيات التي مصدرها الوحيد : الوحي ، مما يتعلق بالله وملائكته

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكتبه ورسله واليوم الآخر، والجنة والنار ، والساعة وأشراطها ، وأحداث آخر الزمان، مع التركيز على المبشرات . أم كانت معرفة تتعلق بالجوانب الإنسانية . وقد اكتفينا هنا بالحديث عن نواحٍ ثلاث ، هي التربية والصحة والاقتصاد. كما بيينا علاقة السنة بالعلم التجريبي ، وهدايتها فيه .

والقسم الثالث : عن السنة باعتبارها مصدرًا للحضارة . وحديثنا هنا شمل بابين كبيرين : السنة والفقه الحضاري ، والسنة والسلوك الحضاري ، وفي كل منهما فروع وفصول ، أما الكلام عن السنة والبناء الحضارى، فأرجأناه إلى فرصة أخرى لأن الحديث فيه يطول .

وبهذا تم الكتاب بحمد الله تعالى وتوفيقه .

وأرجو أن يكون قد فتح الطريق للباحثين ، في هذا الموضوع الرحب ، فلا يزال مجال القول ذا سعة ، ولكل مجتهد نصيب .

﴿ فَلِلَّهِ الحَمدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرضِ رَبِّ العَالَمِينَ * وَلَهُ الكِبرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (الجاثية : ٣٦ ، ٣٧) .

يوسف القرضاوي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القسم الأول

الجانب التشريعي في السنة النبوية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجانب التشريعي في السنة النبوية

تمهيد :

لقد واجهت السنة النبوية المطهّرة جملة هجمات شرسة من عبيد الفكر الغربي ، الذين حاولوا اغتيالها والإجهاز عليها ، بكل ما استطاعوا من قوة ، وما ملكوا من حيلة . تعددت لذلك وسائلهم ، واختلفت مسالكهم ، وإن اتحدث مآربهم .

فمنهم من تولوا حملات التشكيك في (ثبوت السنة) إما التشكيك فيها كلها أو في السنة القولية خاصة ــ وهي جمهرة السنة ومعظمها ـ أو في الرواة المشاهير كأبي هريرة رضي الله عنه .

ومنهم من حملوا لواء الطعن في حجيتها ومصدريتها لتشريع الإسلام وتوجيهه ، وزعموا أنهم استغنوا بالقرآن الكريم عنها !

ومن هؤلاء وأولئك ، من يحاول هدم السنة بالسنة نفسها ، وذلك بأخذ بعض الأحاديث وتحريفها عن مواضعها ، والاستدلال بها على غير ما تدل عليه .

حديث حرِّف عن موضعه :

ومن هذه الأحاديث التي وظَّفها بعضهم توظيفًا سيئًا : الحديث المشهور الذي رواه مسلم في صحيحه في قضية تأبير النخل ، وفيه قال في بعض الروايات : « أنتم أعلم بأمر دنياكم [1] » .

---

(١) الحديث رواه مسلم في صحيحه ، في كتاب « الفضائل »، من رواية طلحة ورافع بن خديج وعائشة وأنس رضي الله عنهم (الأحاديث : ٢٣٦١ ـ ٢٣٦٣) من صحيح مسلم، بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، وسيأتي ذكر رواياته مفصلة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقد أراد بعضهم أن يحذف النظام السياسي كله من الإسلام بهذا الحديث وحده، لأن أمر السياسة أصولاً وفروعًا من أمر دنيانا ، فنحن أعلم به . فليس من شأن الوحي أن يكون له فيها تشريع أو توجيه ، فالإسلام عند هؤلاء دين بلا دولة ، وعقيدة بلا شريعة !

وأراد آخرون أن يحذفوا النظام الاقتصادي كله من الإسلام كذلك، بسبب هذا الحديث الواحد !

وقد ناقشني في ذلك صديق قديم منذ نحو ربع قرن ، منكرًا أن يكون للإسلام معرفة بالاقتصاد تشريعاً وتوجيهًا وتنظيماً ، وكان من أبرز حججه هذا الحديث ، وقد سجلت هذه المناقشة ، وذكرت حجج ـ بل شبهات ـ هذا الصديق ، ورددت عليها في مقام آخر .

المهم أن بعض الناس أراد أن يهدم بهذا الحديث الفرد كل ما حوت دواوين السنة الزاخرة من أحاديث البيوع والمعاملات ، والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وكأن الرسول قال هذا الحديث لينسخ به جميع أقواله وأعماله وتقريراته الأخرى ، التي تكوّن السنة النبوية المطهرة !

وهذا الغلو من بعض الناس ، هو الذي جعل عالماً كبيرًا مثل المحدث الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر ـ رحمه الله ـ يعلق على هذا الحديث في مسند الإمام أحمد [1] فيقول :

« هذا الحديث مما طنطن به ملحدو مصر وصنائع أوربة فيها ، من عبيد المستشرقين ، وتلامذة المبشّرين ، فجعلوه أصلاً يحجون به أهل السُّنة وأنصارها ، وخدّام الشريعة وحماتها ، إذا أرادوا أن ينفوا شيئًا من السَّنة ، وأن ينكروا شريعة من شرائع الإسلام ، في المعاملات وشئون الاجتماع وغيرها ، يزعمون أن هذه من شؤون الدنيا ، يتمسكون برواية أنس : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » والله يعلم أنهم لا يؤمنون بأصل الدين ، ولا بالألوهية ، ولا بالرسالة ، ولا يصدقون القرآن في قرارة نفوسهم . ومن آمن منهم فإنما يؤمن لسانه ظاهرًا ، ويؤمن قلبه فيما يخيل إليه ، لا عن ثقة وطمأنينة ، ولكن تقليدًا وخشية ، فإذا ما جد الجد ، وتعارضت الشريعة ،

---

(١) انظر: التعليق على الحديث ذي الرقم ١٣٩٥ من المسند بتحقيق أحمد محمد شاكر، ط. دار المعارف .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكتاب والسُّنة ، مع ما درسوا في مصر أو في أوروبة لم يترددوا في المفاضلة ، ولم يحجموا عن الاختيار ، وفضلوا ما أخذوه عن سادتهم ، واختاروا ما أشربت قلوبهم! ثم ينسبون نفوسهم بعد ذلك أو ينسبهم الناس إلى الإسلام !!

والحديث واضح صريح ، لا يعارض نصًّا ، ولا يدل على عدم الاحتجاج بالسُّنة في كل شأن ، وإنما كان في قصة تلقيح النخل أن قال لهم : « ما أظن ذلك يغني شيئًا » . فهو لم يأمر ولم ينه ، ولم يخبر عن الله ، ولم يسن في ذلك سنة ، حتى يتوسع في هذا المعنى إلى ما يهدم به أصل التشريع » .

معنى « أنتم أعلم بأمر دنياكم » :

إذن ما معنى هذا الحديث : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » ؟

إن معناه واضح لا لبس فيه ، وهو أن الدين لا يتدخل في أمور البشر التي تدفع إليها غرائزهم وحاجاتهم الدنيوية ، إلاّ حيث يكون فيها إفراط أو تفريط أو انحراف ، كما أنه يتدخل ليربط حركات الإنسان كلها ـ حتى الغريزية والعادية منها ـ بأهداف ربانية عليا ، وقيم أخلاقية مثلى ، ثم ليرسم آدابًا إنسانية راقية في أداء هذه الأعمال ، تميزه عن الحيوان الأعجم .

ونضرب هنا بعض الأمثلة للأمور الدنيوية وموقف الإسلام منها :

١ ـ القتال :

خذ مثلاً : القتال .

فالإسلام جاء يحدد أهداف القتال ، ويأمر بالاستعداد له ، وأخذ الحذر من العدو ، وإعداد ما يستطاع من القوة ، مثل قوله تعالى :

﴿ يأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذرَكُم فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعًا ﴾ (النساء : ٧١) ، ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا استَطَعتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخَيلِ تُرهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُم﴾ (الأنفال : ٦٠) .

﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَو تَغفُلُونَ عَن أَسلِحَتِكُم وَأَمتِعَتِكُم فَيَمِيلُونَ عَلَيكُم مَّيلَةً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وَاحِدَةً﴾ (النساء : ١٠٢) وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ألا إن القوة الرميُ [١] » ، و « ومن تعلَّم الرمي ثم نسيه فهي نعمة كفرها [٢] »، و « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله [٣] » .

كما جعل للحرب آداباً تراعى ﴿ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُم وَلاَ تَعْتَدُوَاْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ المعتَدِينَ ﴾ (البقرة : ١٩٠) . وفي الحديث : « لا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا [٤] . . إلخ . . .

أما نوع الأسلحة التي تستعمل في القتال ، وطريقة صنعها ، وكيفية التدريب عليها ، وما شابه ذلك ، فليس من شأن الدين ، إنما هو من شأن وزارة الدفاع وقيادة القوات المسلّحة .

قد يكون السلاح في عصر ما هو السيف والرمح والقوس، وفي عصر ثان هو المنجنيق ، وفي عصر ثالث هو البندقية والمدفع ، وفي عصر آخر هو القنابل أو الصواريخ .

وقد يستخدم المحاربون ـ في وقت ما ـ الخيل ، وفي وقت آخر الفيلة ، وفي وقت ثالث الدبّابات أو الطائرات أو مراكب الفضاء .

وتوجيه الدين في عصر الخيل بالنظر إلى القتال ، هو نفس توجيهه في عصر سفن الفضاء .

الهدف هو الهدف : « أن تكون كلمة الله هي العليا » ، والأدب هو الأدب : ب«ولا تغدروا ولا تمثلوا » ، ﴿ ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ .

وإعداد القوة المستطاعة ، وأخذ الحذر ، وتدريب الأمة : هو هو ، تتغير الآلات والوسائل والكيفيات ، أما المبادئ والغايات فهي ثابتة باقية .

---

(١) رواه مسلم من حديث عقبة بن عامر ، في كتاب الإمارة برقم (١٩١٧) .

(٢) رواه أبو داود والنسائي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، كما في المستدرك (٢ / ٩٥) من حديث عقبة بن عامر . وانظر كتابنا : « المنتقى من الترغيب والترهيب »، ج ١ ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

(٣) متفق عليه ، انظر : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، لمحمد فؤاد عبد الباقي (١٢٤٣ ، ١٢٤٤) . وهو من حديث أبي موسى .

(٤) رواه مسلم من حديث بُرَيدة في كتاب الجهاد ، برقم (١٣٣١). ومعنى (لا تغُلّوا) : أي لا تخونوا في الغنيمة . ومعنى (لا تمثلوا) : أي لا تشوهوا القتلى ، و (لا تقتلوا وليدا) : أي صبيًّا ليس من أهل القتال .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ ـ الزراعـــة :

وهاك مثلاً آخر : الزراعة .

فالإسلام يحث عليها ، ويعد الزرّاع بأفضل المثوبة عند الله : «ما من مسلم يزرع زرعًا أو يغرس غرسًا ، فيأكُل منه طيرٌ أو إنسان أو بهيمة ، إلاّ كان له به صدقة[١]» .

ولكن الدين لا يتدخل ليعلم الناس كيف يزرعون ؟ وماذا يزرعون ؟ ومتى يزرعون ؟ وبأي شيء يزرعون؟ وبماذا يسقون الزرع ؟أ بالشادوف أم بالطنبور أم بالساقية ؟ أم بالآلة الميكانيكية ؟ بالري التقليدي أم بالرش أم التنقيط أم غيرها ؟

الدين لا دخل له هنا ، فليس هذا من اختصاصه ، إنما هو من اختصاص وزارة الزراعة أو ما يشبهها من المؤسسات !

وتطور أدوات الزراعة من المحراث الذي تجرُّه الأبقار ، إلى المحراث الميكانيكي ، وتغيُّر طريقة الري وأدواته من الشادوف والسواقي إلى الآلات الميكانيكية الحديثة ، ومن طريقة الغمر إلى طريقة الرش أو التنقيط ، لا يغيّر من موقف الدين وتوجيهاته الراسخة الأولى .

٣ ـ التـــداوي :

ونضيف مثلاً ثالثاً ، زيادة في التوضيح ، وهو التداوي .

لقد فهم بعض الناس من قديم أن المرض شيء قدَّره الله على الإنسان ، وما قدَّره الله نافذ لا محالة ، فما فائدة التداوي ؟

والنبي ـ ﷺ ـ يلحظ ذلك ، فيبين للناس أن المرض من الله ، والدواء من الله : «يا عباد الله : تداووا ، فإن الله لم يضع داء إلاّ وضع له دواء ، غير داء واحد : الهرم[٢]» .

---

(١) رواه البخاري في كتاب المزارعة ، ومسلم في كتاب المساقاة من حديث أنس . انظر : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، لمحمد فؤاد عبد الباقي ، ج ٢ برقم (١٠٠١) .

(٢) رواه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان والحاكم عن أسامة بن شريك ، كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٩٧٣٤) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« وما أنزل الله داءً إلاّ أنزل له الدواء [1] » ، « إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرَّم عليكم [2] » .

وسئل النبي ـ ﷺ ـ عن الأدوية : هل ترد من قدر الله شيئًا ؟ فقال : هي من قدر الله [3]. وهو بصفة عامة ، يوصي بصيانة البدن وحفظه ووقايته من كل أذى ، لأنه عدة المؤمن للجهاد وأداء واجبه نحو ربه ونفسه وأسرته والناس أجمعين .

أما الدواء ، فما هو ؟ وكيف يصنع ؟ ومن أي المواد ؟ وما مقداره ؟ إلخ . . فليس هذا من شأن الدين ، وإنما هو من شأن وزارة الصحة وما شابهها .

لكن يبقى توجيه الدين الأول ـ في الحث على التداوي وعدم التداوي بالحرام ، وفي رعاية حق البدن ـ ساريًا غير منسوخ ولا مبدل .

هذا هو المفهوم من هذا الحديث : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » ، وليس معناه عزل الدين عن الحياة .

المبالغة في نفي التشريع عن السُّنة :

وقد نشر الدكتور الشيخ عبد المنعم النمر بحثًا عن (السُّنة والتشريع) ، اعتمد فيه على ما كتب القرافي والدهلوي وشلتوت في الموضوع ، معارضًا الذين غلَوْا فقالوا : إن كل ما ورد في كتب السُّنة هو للتشريع ، وكان له فيه نظرات وتحليلات مفيدة . ولكنه بالغ في دعواه ، حتى كاد يُخرج قضايا المعاملات والأحوال المدنية كلها من دائرة السُّنة التشريعية [4]. وانتهى به هذا الاتجاه إلى أن حرم برأيه ما أحلته السُّنة

---

(١) رواه البخاري وابن ماجه عن ابن مسعود ، كما في صحيح الجامع الصغير (٥٥٥٨).

(٢) رواه البخاري عن ابن مسعود موقوفًا ومعلقًا ، في الطب . ووصله ابن أبي شيبة وسنده صحيح .

(٣) رواه الترمذي في أبواب الطب (٢٠٦٦) ط. حمص ، وقال : حسن صحيح . وكذلك في القدر (٢١٤٩)، وابن ماجه في الطب (٣٤٣٧)، وأحمد في المسند (٣/ ٤٢١)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٩٩ و ٤٠٢) وصححه ، وحسنه الألباني في تخريج كتابنا (مشكلة الفقر) برقم (١١) .

(٤) ركز د. النمر على أن كثيرًا من أوامر الرسول ونواهيه في المعاملات كان أساسها الاجتهاد لا الوحي . وهذا لا يفيد في دعواه ، لأن الاجتهاد إذا أقر كان بمنزلة الوحي ، لأنه عليه الصلاة والسلام لايقر على خطإ ، كما هو مقرر في الأصول . ولهذا يسميه العلماء : الوحي الباطن .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ورأينا من المتدينين من ينكر على الخطباء المعاصرين أنهم يرقون المنابر ويخطبون الجمع ، دون أن يكون في أيديهم عصا ، ويرى في ذلك ازدراء بالسُّنة !

وقد لامني أحدهم على ذلك ، فقلت له : إذا كنت لم أحمل في حياتي عصًا أبدًا[1] ، فكيف أحملها للخطبة وحدها ؟!

إنها تذكرني بالسيف الخشبي الذي كان من مستلزمات خطبة الجمعة في معظم بلاد المسلمين إلى عهد قريب [2]، ثم تحرر الناس منه . فقد كانت سخرية مُرة أن تكون سيوف الناس جميعًا من حديد ، وسيف الخطيب المسلم وحده من خشب !

* وفئة أخرى ، تريد أن تعزل السنَّة عن شئون الحياة العملية كلها ! فالعادات والمعاملات و شئون الاقتصاد والسياسة والإدارة والحرب ونحوها ، يجب أن تترك للناس ، ولا تدخل السنَّة فيها آمرة ولا ناهية ، ولا موجّهة ولا هادية .

وحجتهم في ذلك : الحديث الذي أوّلوه على غير ما أريد به ، وما سيق لبيانه ، وهو حديث : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

والحديث قد ذكره مسلم في صحيحه ، في قصة تأبير النخل أو تلقيحه . ويحسن بنا أن نسوق رواياته ، لنتبين المراد منه بجلاء :

فمن حديث طلحة ، قال : مررت مع رسول ـ الله صلى الله عليه وسلم ـ بقوم على رؤوس النخل ، فقال : ما يصنع هؤلاء ؟ فقالوا : يُلَقِّحونه ، يجعلون الذكر في الأنثى فيَلْقَح . فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : «ما أظن يغني ذلك شيئًا» . قال : فأُخبروا بذلك ، فتركوه . فأُخبر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإني إنما ظننت ظنًا ، فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئًا فخذوا به ، فإني لن أكذب على الله عز وجل » [3] .

ومن حديث رافع بن خديج ، قال : قدم نبي الله المدينة وهم يأبِرُون النخل ـ يقولون : يلقحون النخل ـ فقال : ما تصنعون ؟ قالوا : كنا نصنعه . قال : لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرًا . فتركوه ، فنفضت ـ أو فنقصت (أي ثمر النخل) ـ قال :

---

(١) شاء الله تعالى أن أحملها الآن بعد الابتلاء بوجع الركبة ، نسأل الله العافية .

(٢) بل ما زال بعض الخطباء في بعض بلدان المسلمين يحملونه إلى اليوم ! كما شاهدت ذلك بعينيى .

(٣) رواه مسلم في الفضائل ، برقم (٢٣٦١) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فذكروا ذلك له . فقال : « إنما أنا بشر . إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي ، فإنما أنا بشر »[1] .

ومن حديث عائشة وأنس : أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرّ بقوم يلقحون ، فقال : « لو لم تفعلوا لصلح » . قال فخرج شيصًا ـ أي رديئًا ـ فمرّ بهم ، فقال : «ما لنخلكم» ؟ قالوا : قلت كذا وكذا . قال : « أنتم أعلم بأمر دنياكم[2] » . أ هـ .

فالحديث برواياته ، يدل على أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أبدى لهم رأيًا ظنيًا في أمر من أمور المعيشة ، لم يكن له به خبرة ؛ فقد كان من أهل مكة الذين لم يمارسوا الزرع والغرس ، لأنهم يسكنون بواد غير ذي زرع . وظنه أصحابه دينًا يتبع ، وشرعًا يطاع ، فكان ما كان من عدم بلوغ الثمر غايته ، فبين لهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ما قاله لهم ، لم يكن إلا ظنًا في شأن غير ديني ، وإنما هو أمر « فني» بحت ، هم أخبر به وأدرى ، ولهذا قال : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

فما كان من هذا القبيل ، مما يرجع إلى الخبرة العادية من أمر الدنيا من زراعة وصناعة وطب ونحوها من النواحي الفنية : فليس من السّنة التشريعية التي يجب اتباعها .

ولهذا وضع الإمام النووي هذا الحديث في صحيح مسلم تحت «باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا ، دون ما ذكره ـ صلى الله عليه وسلم ـ من معايش الدنيا على سبيل الرأي » .

أما أن يتخذ هذا الحديث تكأة لإخراج السنّة ، بل إخراج الدين كله عن الحياة ، وعزله عن شئون المجتمع ، بدعوى أنه رسالة روحية ! فهذا ما ترفضه السنّة ، ويرفضه القرآن ، ويرفضه الإسلام .

لقد جاء الإسلام ـ بقرآنه وسنّته ـ منهج حياة متكاملاً ، مازجًا بين الروح والمادة ، جامعا بين الآخرة والدنيا ، ضابطا لسير الحياة كلها بشرع الله .

ولهذا ، كانت تشريعاته ووصاياه شاملة لكل جوانب الحياة : في الأكل والشرب ، والملبس والزينة ، والبيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، والزواج والطلاق ، والوصايا

---

(١) رواه مسلم (٢٣٦٢) .
(٢) رواه مسلم (٢٣٦٣) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمواريث ، والبر والصلة ، والأدب والأخلاق ، والجرائم والعقوبات ، والسلْم والحرب ، والخلافة والإمارة ، إلى غير ذلك مما زخرت به كتب الحديث والتفسير والأحكام والآداب . وحسبنا أن أطول آية في كتاب الله ، نزلت تنظم شأناً من شئون الدنيا ، وهو كتابة الدَّين .

إن هذه القضية لتعتبر من أهم القضايا التي يقع فيها الخلط وسوء الفهم ، وعدم التمييز بين ما يراد به التشريع من السنن ــ وهو الغالب ــ وما لا يراد به التشريع ، وما يراد به العموم ، وما يراد به الخصوص . ونجد الكثيرين هنا يقفون ـ على ما هو معتاد دائماً ـ بين طرفي الغلو والتفريط .

وقد شهدت معركة جدلية بين فئتين من هؤلاء حول سُنن الأكل وآدابه :

فئة رفضت الأكل على منضدة ، واستخدام الملعقة والشوكة . وأبت إلا أن تجلس على الأرض ، وتأكل باليد ، وتلعق الأصابع بعد الأكل ، ائتساءً بفعل النبي، صلى الله عليه وسلم ، وتتهم من لم يفعل ذلك بمخالفة السنَّة .

والفئة الأخرى زعمت أن الأكل والشرب من شئون الحياة التي تتطور وتتغير وتختلف باختلاف البيئات والأزمان ، وأن الدين لم يجئ ليعلم الناس كيف يأكلون ويشربون ، ولا يهمه : أَكَلَ الناس بأيديهم ، أم أكلوا بأداة كالملعقة ، ولا يعنيه : أكلوا باليمين ، أم بالشمال .

وإذا نظرنا إلى صنيع الفئتين ، وجدنا الفئة الأولى قد انطلقت من واقع الحرص على الاقتداء بالنبي الكريم في كل أحواله وأفعاله ، التي تمثل البساطة والتواضع والقناعة ، والزهد في زخارف الحياة ، والبعد عن مشابهة المترفين والمتجبرين ، وهؤلاء ـ لا شك ـ مشكورون ومأجورون على نيتهم وحرصهم على كمال الاتباع ، كما كان يفعل ابن عمر وغيره من الصحابة الكرام رضي الله عنهم .

ولكنهم أخطئوا حين بالغوا في اعتبار هذا السلوك كله جزءًا من السنَّة ومن الدين ، وأنكروا على من تركه ، ولم يراعوا الظروف والأحوال ، وتحدَّوْا غيرهم فيما لا يستحق التحدي . وجُلّ ما حسبوه سنة ، إنما هو عادة عربية ، كانت ملائمة لبيئتها وزمانها ، وقد فعلها الرسول الكريم مراعاة لعادة قومه .

أما الفئة الأخرى ، فقد خلطت بين ما يهتم به الدين وما لا يهتم به ، فإذا كان الدين لا يهمه أن تأكل على الأرض أو على خوان ، وأن تأكل باليد أم بالملعقة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والشوكة ، فإنه يهمه أن تأكل باليمين لا بالشمال ، وأن تشرب باليمين لا بالشمال .

وليس ذلك لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يحب التيامن في كل شيء فحسب ، بل لأن توجيهاته عليه الصلاة والسلام في ذلك صريحة كل الصراحة ، أمرًا ونهيًا .

فهو يقول : « سم الله ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك »، متفق عليه عن عمر بن أبي سلمة [1] .

ويقول : « لا تأكلوا بالشمال فإن الشيطان يأكل بالشمال » . رواه مسلم عن جابر [2] .

ويقول : « إذا أكل أحدكم فليأكل بيمنيه ، وإذا شرب فليشرب بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ، ويشرب بشماله » . رواه مسلم عن ابن عمر [3] .

وفي رواية : « لا يأكلن أحدكم بشماله ولا يشربن بها ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بها [4] » .

وعن سلمة بن الأكوع : أن رجلاً أكل عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشماله ، فقال : « كل بيمينك » . قال : لا أستطيع . قال : « لا استطعت ! ما منعه إلا الكبر » فما رفعها إلى فيه . رواه مسلم [5] .

فهذه الأحاديث الآمرة الناهية الزاجرة : تدل على أن الأكل باليمين مقصود ، وهو أدب من الآداب المميزة للإنسان المسلم ، وللمجتمع المسلم . والأمم الأصيلة تحرص على أن يكون لها تميزها واستقلالها الخاص ، ولو كان ذلك في شئون الحياة العادية .

وللأستاذ محمد أسد في كتابه : (الإسلام على مفترق الطرق) تحليل قيِّم لما جاءت به السنَّة من آداب وتقاليد ، تتعلق بشؤون الحياة وعادات الناس ، وأثرها في تميز الشخصية المسلمة ، ينبغي أن يقرأ ويدرس ، ويستفاد منه [6] .

---

(١) انظر : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ ط . المطبعة العصرية بالكويت . الحديث (١٣١٣) .

(٢) رواه مسلم في كتاب الأشربة ، الحديث (٢٠١٩) . (٣) هو في مسلم أيضا (٢٠٢٠) .

(٤) هذه رواية لحديث ابن عمر السابق . (٥) الحديث رقم (٢٠٢١) .

(٦) انظر : الإسلام على مفترق الطرق ، ترجمة د. عمر فروخ ود. مصطفى الخالدي . ط . بيروت : الفصلين الأخيرين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والصواب فيما ذكرناه عن الفريقين المتعارضين، هو الموقف العدل الوسط، الذي يميز بين ما كان من السُّنة تشريعًا يتبع، وما ليس بتشريع، وما كان عامًّا دائمًا، وما ليس له هذه الصفة، وهذا يحتاج إلى بصر وفقه في كتاب الله وسنة رسوله.

قضية كبيرة تحتاج إلى تحقيق:

إنها بلا ريب قضية من القضايا التي دار البحث حولها ـ ولا يزال يدور ـ في عصرنا، ولا تزال في حاجة إلى تحقيق وتمحيص: قضية انقسام السنَّة إلى تشريعية وغير تشريعية، وأساس هذا التقسيم، وأثره في التطبيق. والبحث يتعلق بأصول الفقه أكثر مما يتعلق بأصول الحديث. وكلا العلمين لا يستغني عن الآخر.

وأول من عبَّر عن هذا الموضوع بهذا العنوان أو المصطلح الصريح: تقسيم السنّة إلى ما كان للتشريع، وما ليس للتشريع، وقسم ما كان للتشريع إلى ما هو عام ودائم، وما ليس كذلك، هو ـ فيما أعلم ـ شيخنا الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق، الذي أورد ذلك في كتابه (فقه القرآن والسنَّة: القصاص) وكان في الأصل محاضرات ألقاها على طلبة الدراسات العليا في كلية الحقوق بالقاهرة في الثلاثينيات، ثم دخل هذا الكتاب بعد ذلك ضمن كتابه المعروف: (الإسلام عقيدة وشريعة).

وعن الشيخ شلتوت، أخذ الكثير من المعاصرين فيما كتبوه عن السنَّة [1]، وتقسيمها إلى تشريعية وغير تشريعية. وأنا أعني أنهم أخذوا العنوان والمصطلح. أما المضمون فقد تكلم فيه من قبل من المحدَثين العلاّمة الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار، ومن قبله ـ في القرن الثاني عشر الهجري ـ حكيم الإسلام في الهند أحمد بن عبد الرحيم، المعروف بـ (شاه ولي الله) الدهلوي (ت: ١١٧٦ هـ).

كما عرض للجانب التشريعي الخاص، وفصّل فيه: الإمام أبو العباس شهاب الدين القرافي (ت: ٦٨٤ هـ). كما سنذكر ذلك كله بعد.

---

(١) مثل ما كتبه الدكتور محمد سليم العوّا: في العددالافتتاحي من مجلة (المسلم المعاصر) عن (السُّنة التشريعية وغير التشريعية)، وما كتبه الدكتور عبد المنعم النمر عن (السُّنة والتشريع) وغيرهما.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعرض له آخرون من السلف والخلف ، ومن الفقهاء والأصوليين في مناسبات متفرقة وتحت عناوين مختلفة ، بل أثير منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم ، كما سيأتي ذكره .

كلام الإمام ابن قتيبة عن السنن :

وأول من رأيناه نبه على تنوع ما جاءت به السنَّة من المصنّفين من علمائنا المتقدمين ، هو ـ فيما نعلم ـ الإمام أبو محمد ابن قتيبة (ت : ٢٧٦ هـ) العالم الموسوعي الكبير ، ومحامي أهل السنَّة ، الذي كان لهم كالجاحظ للمعتزلة . فقد عرض للموضوع في كتابه : « تأويل مختلف الحديث » وإن لم يحققه تحقيقًا كافيًا ، ولا سيما أن الطبيعة الموسوعية تغلب عليه أكثر من طبيعة المتخصص . ولذا وصفوه بأنه فقيه الأدباء ، وأديب الفقهاء !

قال أبو محمد (أي ابن قتيبة) : « والسُّنن ـ عندنا ـ ثلاث :

* سنَّة أتاه بها جبريل عليه السلام عن الله تعالى ، كقوله : « لا تنكح المرأة على عمتها وخالتها » [١] و « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » [٢]، و « لا تحرِّم المصة ولا المصتان [٣]» ، و « الدية على العاقلة [٤] » ، وأشباه هذه من الأصول . (يعني ابن قتيبة أن السنة هنا أساسها الوحي) .

* والسنَّة الثانية : سنَّة أباح الله له أن يسنها ، وأمره باستعمال رأيه فيها ، فله أن يترخص فيها لمن شاء ، على حسب العلة والعذر ، كتحريمه الحرير على الرجال ، وإذنه لعبد الرحمن بن عوف فيه ، لعلة كانت به .

وكقوله في مكة : « لا يُختَلَى خلاها ، ولا يعضد شجرها » .

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة، كما في اللؤلؤ والمرجان (٨٩٠).

(٢) متفق عليه عن ابن عباس . اللؤلؤ والمرجان (٩١٩) .

(٣) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن عن عائشة ، والنسائي وابن حبان عن الزبير . صحيح الجامع الصغير (٧٢٤١) .

(٤) روى الشيخان وأصحاب السنن عن أبي هريرة : أن النبي ﷺ قضى بالدية على العاقلة . انظر : إرواء الغليل للألباني في حديث (٢٢٠٥) ط . المكتب الإسلامي بيروت .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقال العباس بن عبد المطلب : يا رسول الله ، إلا الإذخر ، فإنه لبيوتنا ؟ فقال : « إلا الإذخر » (١) .

ولو كان الله تعالى حرَّم جميع شجرها ، لم يكن ليتابع العباس على ما أراد ، من إطلاق (يعني : استثناء) الإذخر ، ولكن الله تعالى جعل له أن يطلق من ذلك ما رآه صلاحًا ، فأطلق الإذخر لمنافعهم .

وقال في العمرة : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت ، لأهللت بعمرة » (٢) .

وقال في صلاة العشاء : « لو لا أن أشق على أمتي لجعلت وقت هذه الصلاة هذا الحين » (٣) .

ونهى عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث ، وعن زيارة القبور ، وعن النبيذ في الظروف .

ثم قال : « إني نهيتكم عن ادّخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث ، ثم بدا لي أن الناس يتحفون ضيفهم ، ويحتسبون لغائبهم ، فكلوا وأمسكوا ما شئتم . ونهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، ولا تقولوا هُجْرًا ، فإنه بدا لي أنه يرقّ القلوب . ونهيتكم عن النبيذ في الظروف فاشربوا ، ولا تشربوا مسكراً » (٤) .

قال أبو محمد : فهذه الأشياء تدلك على أن الله عز وجل أطلق له صلى الله عليه وسلم أن يحظر ، وأن يطلق (أي يستثني) بعد أن حظر ، لمن شاء .

ولو كان ذلك لا يجوز له في هذه الأمور ، لتوقف عنها ، كما توقف حين أتته المجادلة في زوجها ، تسأله عن الظهار ، فلم يرجع إليها قولاً ، وقال : « يقضي الله عز وجل في ذلك » (٥) .

---

(١) متفق عليه ، من حديث ابن عباس وغيره . اللؤلؤ والمرجان (٨٥٩) . ومعنى (لا يختلى خلاها) : أي لا يقطع نباتها الرطب . ومعنى (لا يعضد شجرها) ، أي لا يقطع بالمعضد ، وهو آلة كالفأس ، والإذخر: نبت معروف طيب الرائحة . وهو حَلْفاء مكة .

(٢) متفق عليه كذلك عن جابر ، اللؤلؤ والمرجان (٧٦٣) .

(٣) رواه البخاري عن ابن عباس ، ومسلم عن ابن عمر وعائشة ، كما في صحيح الجامع الصغير (٥٣١٤) .

(٤) رواه مسلم في الجنائز من حديث بريدة (٩٧٧) ، بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي . والحاكم وأحمد عن أنس كما في صحيح الجامع (٤٥٨٤) ، مع بعض الاختلاف .

(٥) حديث المجادلة رواه أحمد والبخاري معلقًا ، والنسائي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن جرير بعضهم مختصراً وبعضهم مطولاً ، كما في تفسير ابن كثير في أول (المجادلة) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأتاه أعـرابي وهو محرم ، وعليه جبـة صوف ، وبه أثـر من طيب فـاستفتاه ، فما رجع إليه قولاً ، حتى تغشى ثوبه ، وغط غطيط الفحل ، ثم أفاق فأفتاه [1].

* والسنَّة الثـالثة : مـا سنَّه لنـا تأديبًا ، فـإن نحن فعلنـاه ، كانـت الفضيلة في ذلـك ، وإن نحـن تـركنـاه ، فـلا جنـاح علينـا إن شـاء اللـه ، كـأمـره في العِمّـة بالتلحّي[2]، وكنهيه عن لحوم الجلاَّلة [3] ، وكسب الحجام [4] » . [5] اهـ .

وابن قتيبة في هذا النوع من السُّنة ، ينـزع إلى اعتبار الأمر والنهي من باب ما سماه الأصوليون (الإرشاد) .

تحقيق الإمام القرافي :

وفي القرن السابع ، رأينا العلاّمة المالكـي ، الإمام شهاب الدين القرافي المصري ، يعرض لأقواله وتصرفاته ﷺ ، واختلاف وجهاتها ، ما بين الإمامة والقضاء والفتوى أو التبليغ عن اللـه تعالى ، وأثر ذلك في عمـوم الحكم أو خصوصه ، وإطـلاقه أو تقييده ، فيفصِّل ذلك تفصيلاً غير مسبوق ، وذلك في كتابين له ، وهما من الكتب الأصيلـة الفريـدة : « الفـروق » ، و « الإحكام في تمييـز الفتـاوى من الأحكـام » . ونكتفي هنا بما ذكره في الفروق حيث قال في الفرق السادس والثلاثين ، وهو «الفرق بين قاعدة تصرفه ـ ﷺ ـ بالقضاء ، وقاعدة تصرفـه بالفتوى ـ وهى التبليغ ـ وقاعدة تصرفه بالإمامة » قال رحمه الله :

« اعلم أن رسـول الله ﷺ ، هـو الإمام الأعظـم ، والقاضي الأحكـم ، والمفتي الأعلم ، فهـو صلى الله عليه وسلم إمـام الأئمة ، وقاضي القضـاة ، وعالم العلماء .

---

(١) رواه مسلم في كتاب الحج من صحيحه . حديث (١١٨٠) .

(٢) التلحّي : تطويق العمامة تحت الحنك .

(٣) رواه أبو داود والترمـذي وابن مـاجه والحاكم عـن ابن عمر « نهى عـن أكل الجلاّلـة وألبانها »، كما في صحيح الجامع الصغير (٦٨٥٥). والجلاّلة : ما يأكل الجلة . أى العذرة من الأنعام . فيؤثر ذلك في لحومها وألبانها . وابن قتيبة يحمل النهي هنا على كراهة التنزيه ، أو اعتباره من باب الإرشاد ، كما يبدو .

(٤) رواه ابن ماجة عـن أبي مسعود (٢١٦٥)، ونقل محققه عن البوصيري في الـزوائد أن إسناده صحيح ، ورجاله ثقات ، على شرط البخاري . أ هـ . والنهي هنا كما يبدو لكراهة التنزيه أو الإرشـاد أيضًا . فقد صـح أن النبي ﷺ أعطـى الحجـام أجره ، وقـد روى ذلـك البخـاري في البيـوع ، ومسلـم في المساقاة ، وغيرهما .

(٥) تأويل مختلف الحديث ، ص ١٩٦ ـ ١٩٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فجميع المناصب الدينية فوضها الله تعالى إليه في رسالته ، وهو أعظم من كل من تولّى منصبًا منها في ذلك المنصب إلى يوم القيامة . فما من منصب ديني إلا وهو متصف به في أعلى رتبة . غير أن غالب تصرفه صلى الله عليه وسلم بالتبليغ ، لأن وصف الرسالة غالب عليه . ثم تقع تصرفاته ﷺ ، منها ما يكون بالتبليغ والفتوى إجماعًا ، ومنها ما يجمع الناس على أنه بالقضاء ، ومنها ما يجمع الناس على أنه بالإمامة ، ومنها ما يختلف العلماء فيه ، لتردده بين رتبتين فصاعدًا ، فمنهم من يغلّب عليه رتبة ، ومنهم من يغلب عليه أخرى .

« ثم تصرفاته ﷺ بهذه الأوصاف تختلف آثارها في الشريعة .

« فكل ما قاله ﷺ أو فعله على سبيل التبليغ ، كان ذلك حكمًا عامًّا على الثقلين إلى يوم القيامة ، فإن كان مأمورًا به أقدم عليه كل أحد بنفسه ، وكذلك المباح . وإن كان منهيًا عنه اجتنبه كل أحد بنفسه .

« وكل ما تصرف فيه عليه السلام بوصف الإمامة : لا يجوز لأحد أن يقدم عليه إلا بإذن الإمام ، اقتداء به عليه السلام ، ولأن سبب تصرفه فيه بوصف الإمامة دون التبليغ يقتضي ذلك .

« وما تصرف فيه ﷺ بوصف القضاء : لا يجوز لأحد أن يقدم عليه إلا بحكم حاكم ، اقتداء به ﷺ ، ولأن السبب الذي لأجله تصرف فيه ﷺ بوصف القضاء يقتضي ذلك .

« وهذه هي الفروق بين هذه القواعد الثلاث ، ويتحقق ذلك بأربع مسائل :

المسألة الأولى :

« بعث الجيوش لقتال الكفار والخوارج ومن تعيَّن قتاله ، وصرف أموال بيت المال في جهاتها ، وجمعها من محالها ، وتولية القضاة والولاية العامة ، وقسمة الغنائم ، وعقد العهود مع الكفار ذمةً وصلحًا . هذا هو شأن الخليفة والإمام الأعظم ، فمتى فعل ﷺ شيئًا من ذلك ، علمنا أنه تصرف فيه ﷺ بطريق الإمامة دون غيرها .

« ومتى فصل ﷺ بين اثنين في دعاوى الأموال أو أحكام الأبدان ونحوها بالبينات أو الأيمان والنكولات ونحوها ، فنعلم أنه ﷺ إنما تصرف في ذلك بالقضاء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دون الإمامة العامة وغيرها ؛ لأن هذا شأن القضاء والقضاة . وكل ما تصرف فيه ﷺ من العبادات بقوله أو بفعله ، أو أجاب به سؤال سائل عن أمر ديني فأجابه فيه ، فهذا تصرف بالفتوى والتبليغ . فهذه المواطن لا خفاء فيها ، وأما مواضع الخفاء والتردد ففي بقية المسائل .

المسألة الثانية : « من أحيا أرضا ميتة فهي له » .

« قوله ﷺ : « من أحيا أرضًا ميتة فهي له [1] » .

« اختلف العلماء رضي الله عنهم في هذا القول : هل هو تصرف بالفتوى ؟ فيجوز لكل أحد أن يحيي ، أذن الإمام في ذلك الإحياء أم لا ـ وهو مذهب مالك والشافعي رضي الله عنهما ـ أو هو تصرف منه عليه السلام بالإمامة ؟ فلا يجوز لأحد أن يحيي إلا بإذن الإمام ، وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله .

« وأما تفرقة مالك بين ما قرب من العمارة ، فلا يحيا إلا بإذن الإمام ، وبين ما بَعُد ، فيجوز بغير إذنه ، فليس من هذا الذي نحن فيه ، بل من قاعدة أخرى ، وهي أن ما قرب من العمران يؤدي إلى التشاجر والفتن وإدخال الضرر ، فلا بد فيه من نظر الأئمة ، دفعًا لذلك المتوقع ، كما تقدم ، وما بعد من ذلك لا يتوقع فيه شيء من ذلك فيجوز .

« ومذهب مالك والشافعي في الإحياء [2] أرجح . لأن الغالب في تصرفه ﷺ الفتيا والتبليغ ، والقاعدة أن الدائر بين الغالب والنادر إضافته إلى الغالب أولى .

---

(١) رواه أبو داود في سننه برقم ٣٠٧٣ ، والترمذي وقال : حسن غريب برقم ١٣٧٨ ، وأحمد والضياء في (المختارة)، كما في (الجامع الصغير) للسيوطي، والنسائي أيضًا، كما نبه عليه المناوي في (فيض القدير) كلهم من حديث سعيد بن زيد، ورواه الترمذي من حديث جابر وقال : حسن صحيح برقم ١٣٧٩ ، وهو في مسند أحمد ج ٣ ص ٣٦٣و٣٨١ . ورواه البخاري في صحيحه باب المزارعة موقوفًا على عمر بهذا اللفظ ، ورواه في كتاب العُمْرَى والرُّقْبَى عن عائشة بلفظ : « من أعمر أرضًا ليست لأحد فهو أحق » .

(٢) بل مذهب أبي حنيفة أرجح فيما أرى ، لأن المصلحة العامة تقتضي ضبط الدولة لملكية الأرض البور وتنظيمها ، فهناك مناطق عسكرية أو شبه عسكرية ، ومناطق أثرية ، لا تسمح الدولة بإحيائها ، وقد تشترط شروطًا للإحياء ، أو تضع حدًا أعلى . . إلخ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المسألة الثالثة : قوله لهند : « خذي ما يكفيك وولدك » .

«قوله ﷺ لهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان، لما قالت له ﷺ : إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني وولدي ما يكفيني ، فقال لها عليه السلام : « خذي لك ولولدك ما يكفيك بالمعروف [1] » .

« اختلف العلماء في هذه المسألة ، وهذا التصرف منه عليه السلام : هل هو بطريق الفتوى؟ فيجوز لكل من ظفر بحقه أو بجنسه أن يأخذه بغير علم خصمه به ؟ ومشهور مذهب مالك خلافه ، بل هو مذهب الشافعي . أو هو تصرف بالقضاء ؟ فلا يجوز لأحد أن يأخذ جنس حقه إذا تعذر أخذه من الغريم ، إلا بقضاء قاض ؟ حكى الخطابي القولين عن العلماء في هذا الحديث . حجة من قال إنه بالقضاء : أنها دعوى في مال على معين فلا يدخله إلا القضاء ، لأن الفتاوى شأنها العموم . وحجة القول إنها فتوى : ما روي أن أبا سفيان كان بالمدينة ، والقضاء على الحاضرين من غير إعلام ولا سماع حجة : لا يجوز ، فيتعين أنه الفتوى ، وهذا هو ظاهر الحديث .

المسألة الرابعة : « من قتل قتيلا فله سَلبه » .

« قوله ﷺ : « من قتل قتيلاً فله سَلَبُه » .[2] اختلف العلماء في هذا الحديث : هل تصرف فيه ﷺ بالإمامة ؛ فلا يستحق أحد سلب المقتول ، إلا أن يقول الإمام ذلك؟ وهو مذهب مالك ، فخالف أصله فيما قاله في الإحياء ، وهو أن غالب تصرفه ﷺ بالفتوى ، فينبغي أن يحمل على الفتيا عملاً بالغالب .

« وسبب مخالفته لأصله أمور :

« منها : أن الغنيمة أصلها أن تكون للغانمين لقوله عز وجل : ﴿ وَاعلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمتُم مِّن شَيءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ ﴾ (الأنفال : ٤١) . وإخراج السلب من ذلك خلاف هذا الظاهر .

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة : انظر : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان . حديث (١١١٥) .

(٢) رواه البخاري في عدة مواضع من صحيحه ، ومسلم في الجهاد (١٥٧١)، وأبو داود (٢٧١٧) والترمذي (١٥٦٢)، ومالك في الموطأ (ص٤٥٤)، وأحمد ٥/ ٢٩٥، ٣٠٦) كلهم عن أبي قتادة . وتمامه عند جميعهم : « من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه» وانظر : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان: حديث (١١٤٤) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« ومنها : أن ذلك ربما أفسد الإخلاص عند المجاهدين ، فيقاتلون لهذا السلَب دون نصر كلمة الإسلام .

« ومن ذلك : أنه يؤدي إلى أن يقبل على قتل من له سلب دون غيره ، فيقع التخاذل في الجيش ، وربما كان قليلُ السلب أشد نكاية على المسلمين . فلأجل هذه الأسباب ترك هذا الأصل .

« وعلى هذا القانون ، وهذه الفروق يتخرج ما يرد عليك من هذا الباب من تصرفاته ﷺ ، فهو من الأصول الشرعية» .[1] أهـ .

كلام الإمام ابن القيم :

وعرض الإمام ابن القيم لهذه المسألة ــ وهو يتحدث عن فقه غزوة حنين في (زاد المعاد) ـ فقال :

وفي هذه الغزوة ، أنه قال : « من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه [2]» .

وقاله في غزوة أخرى قبلها ، فاختلف الفقهاء : هل هذا السلب مستحق بالشرع أو بالشرط؟ على قولين ، هما روايتان عن أحمد :

أحدهما : أنه له بالشرع ، شرطه الإمام أو لم يشرطه ، وهو قول الشافعي .

والثاني : أنه لا يستحق إلا بشرط الإمام . وهو قول أبي حنيفة .

وقول مالك رحمه الله : لا يستحق إلا بشرط الإمام بعد القتال . فلو نصه قبله لم يجز. قال مالك : ولم يبلغني أن النبيَّ ﷺ قال ذلك إلا يوم حنين ، وإنما نفّل النبي ﷺ بعد أن برد القتال [3] .

---

(١) الفروق، ج١ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٩، ط دار المعرفة ، بيروت ، المصورة عن ط الحلبي بالقاهرة . وانظر: الإحكام في تمييز الفتاوى من الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، للقرافي أيضا : السؤال الخامس والعشرين ص ٨٦ ـ ١٠٩ مطبعة الأصيل ـ حلب بتحقيق عبد الفتاح أبو غدة .

(٢) متفق عليه ، وقد تقدم .

(٣) يعني أنه قال تحميسًا وتحريضًا للمقاتلين ، بعد فتور المعركة ، كأنه جعل السلب جائزة لقاتل المشرك في هذه الحالة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومأخذ النزاع : أن النبي ـ ﷺ ـ كان هو الإمام ، والحاكم (أي القاضي) والمفتي ، وهو الرسول ، فقد يقول الحكم بمنصب الرسالة ، فيكون شرعًا عامًّا إلى يوم القيامة كقوله : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد [1] » ، وقوله : « من زرع في أرض قوم بغير إذنهم فليس له من الزرع شيء ، وله نفقته [2] » ، وكحكمه بالشاهد ، واليمين ، [3] وبالشفعة فيما لم يقسم [4].

وقد يقوله بمنصب الفتوى ، كقوله لهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان ـ وقد شكت إليه شح زوجها ، وأنه لا يعطيها ما يكفيها ـ : « خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف [5] » فهذه فتيا لا حكم ، إذ لم يَدْعُ أبا سفيان ، ولم يسأله عن جواب الدعوى ، ولا سألها البينة .

وقد يقوله بمنصب الإمامة . فيكون مصلحة للأمة في ذلك الوقت ، وذلك المكان ، وعلى تلك الحال ، فيلزم من بعده من الأئمة مراعاة ذلك على حسب المصلحة التي راعاها النبي ـ ﷺ ـ زمانًا ومكانًا وحالاً .

ومن ها هنا ، تختلف الأئمة في كثير من المواضع التي فيها أثر عنه ـ ﷺ ـ كقوله ﷺ : « من قتل قتيلاً فله سلبه » ، هل قاله بمنصب الإمامة فيكون حكمه متعلقًا بالأئمة ، أو بمنصب الرسالة والنبوة ، فيكون شرعًا عامًّا ؟

وكذلك قوله : « من أحيا أرضًا ميتة فهي له [6] » ، هل هو شرع عام لكل واحد أذن فيه الإمام أو لم يأذن ، أو هو راجع إلى الأئمة فلا يَملِك بالإحياء إلا بإذن الإمام؟ على القولين :

فالأول : للشافعي وأحمد في ظاهر مذهبيهما .

والثاني : لأبي حنيفة .

---

(١) أخرجه البخاري (الفتح : ٥/ ٢٢١)، ومسلم (١٧١٨) (١٨) ، من حديث عائشة .

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٤١٥ و ٤/ ١٤١ . وأبو داود (٣٤٠٣) وابن ماجه (٦٦ : ٢)، من حديث رافع بن خديج . وفي سنده شريك . وهو سيئ الحفظ.

(٣) أخرجه مسلم (١٧١٢) في الأقضية . باب القضاء باليمين. والشاهد من حديث ابن عباس .

(٤) أخرجه البخاري (الفتح ٤/ ٣٣٩)، وأبو داود (٣٥١٤)، من حديث جابر بن عبد الله .

(٥) أخرجه البخاري في النفقات ، ومسلم (١٧١٤) في الأقضية .

(٦) تقدم تخريجه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفرّق مالك بين الفلـوات الواسعة ، وما لا يتشاحّ فيه النـاس ، وبين ما يقع فيه التشاحّ ؛ فاعتبر إذن الإمام في الثاني دون الأول [1] . ا هـ .

وابن القيم هنا ينهج نهج القرافي في التقسيم ، ولكن الاثنين كليهما لم يتحدثا هنا عما ليس مـن باب التشريـع أصلاً مما ورد مـن السنن النبويـة . وإنما هو مـن باب الجبلّة أو العـادة أو الخبرة المكتسبة مـن البيئة ، ولا علاقـة له بـالوحـي أو التشريع الملزم . وإن كـان العلامة ابـن القيم عرض لشيء مـن ذلك في مناسبـات أخرى في بعض كتبه ، وسيأتي نقل شيء منه فيما كتبه في (مفتاح دار السعادة) .

تقسيم ولي الله الدهلوي لما ورد في السنّة :

وأول من عبر عـن هذه القضيـة كلها بوضـوح وشمول ، وقسمهـا تقسيماً حسنًا استفـاد به كـل من بعـده : حكيم الإسـلام في الهند الشيـخ أحمد بن عبـد الرحيـم المعروف باسم (شاه ولي الله الدهلـوي) المتوفى سنة ١١٧٦ هـ ، فقد عرض لتمييز ما هو تشريع من السُّنة ، مما ليس بتشريـع ، أو ـ على حد تعبيره ـ « ما سبيله سبيل تبليغ الرسالة ، وما ليس من باب تبليغ الـرسالة »، وذلك في كتابه الفريد، « حجة الله البالغة » .

ما سبيله سبيل تبليغ الرسالة :

قال رحمه الله :

« اعلم أن ما روي عن النبي ﷺ ودوِّن في (كتب الحديث) على قسمين :

« أحدهما : مـا سبيله سبيـل تبليغ الرسـالة ، وفيـه قولـه تعالى : ﴿ وَمَآ آتَـاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنهُ فَانتَهُواْ ﴾(الحشر : ٧) » .

« فمنه : علوم المعاد ، وعجائب الملكوت ، وهذا كله مستند إلى الوحي [2] .

---

(١)زاد المعاد ، ج ٣ ص ٤٨٩ ط . مؤسسة الرسالة .

(٢) أي ليس للاجتهـاد فيها مدخل ، فهي مـن أمور الغيب ، ولذا يسميهـا علماء العقائد « السمعيات » بمعنى أن مستندها هو السمع والوحي لا غير .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« ومنه : شرائع وضبط للعبادات والارتفاقات بوجوه الضبط المذكور فيما سبق ، وهذه بعضها مستند إلى الوحي ، وبعضها مستند إلى الاجتهاد ، واجتهاده ﷺ بمنزلة الوحي ، لأن الله تعالى عصمه من أن يتقرر رأيه على الخطأ . وليس يجب أن يكون اجتهاده استنباطاً من النصوص كما يُظَن ، بل أكثره أن يكون علمه الله تعالى مقاصد الشرع ، وقانون التشريع والتيسير والأحكام ، فبين المقاصد المتلقاة بالوحي بذلك القانون » .

« ومنه [1] : حكم مرسلة ، ومصالح مطلقة ، لم يوقِّتها ، ولم يبين حدودها ، كبيان الأخلاق الصالحة وأضدادها . ومستندها غالبًا [2] الاجتهاد ، بمعنى أن الله تعالى علمه قوانين الارتفاقات فاستنبط منها حكمه وجعل فيها كلية » .

« ومنها : فضائل الأعمال ومناقب العمال . وأرى أن بعضها مستند إلى الوحي ، وبعضها إلى الاجتهاد . وقد سبق بيان تلك القوانين (أي في كتابه) .

وهذا القسم هو الذي يُقصَد شرحه وبيان معانيه .

ما ليس من باب تبليغ الرسالة :

«وثانيهما : ما ليس من باب تبليغ الرسالة ، وفيه قوله ﷺ :

«إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر [3] » ، وقوله ﷺ في قصة تأبير النخل : «فإني إنما ظننت ظنًّا ، ولا تؤاخذوني بالظن ، ولكن إن أحدثكم عن الله شيئًا فخذوا به ، فإني لم أكذب على الله» [4] .

«فمنه : الطب ، (وهذا يدلنا على أن الشيخ الدهلوي يرى أن الوصفات الطبية المأثورة ليست من (باب تبليغ الرسالة) ، وبعبارة أخرى : ليست من السُّنة التشريعية ، لأن مستندها التجربة) .

---

(١) أي مما سبيله سبيل تبليغ الرسالة .
(٢) أي لا دائمًا ، فبعضها مستند إلى الوحي أيضًا .
(٣) رواه مسلم في صحيحه ، وقد تقدم .
(٤) رواه مسلم في صحيحه ، وقد تقدم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«ومنه : باب قوله ﷺ : « عليكم بالأدهم الأقرح »[1] ومستنده التجربة[2].

«ومنه : ما فعله النبي ﷺ على سبيل العادة دون العبادة ، وبحسب الاتفاق دون القصد[3].

«ومنه : ما ذكره كما كان يذكر قومه ، كحديث أم زرع ، وحديث خرافة ، وهو قول زيد بن ثابت حيث دخل عليه نفر، فقالوا له : حدثنا أحاديث رسول الله ﷺ. قال : كنت جاره ، فكان إذا نزل عليه الوحى بعث إليّ فكتبته له ، فكان إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا. قال : فكل هذا أحدثكم عن رسول الله ﷺ ؟[4]

«ومنه : ما قصد به مصلحة جزئية يومئذٍ ، وليس من الأمور اللازمة لجميع الأمة ، وذلك مثل ما يأمر به الخليفة من تعبئة الجيوش ، وتعيين الشعار[5]، وهو قول عمر رضي الله عنه : ما لنا وللرمَل (أي في الحج) ؟ كنا نتراءى[6] به قومًا أهلكهم الله! ثم خشي أن يكون له سبب آخر . . . وقد حمل كثير من الأحكام عليه ، كقوله ﷺ: « من قتل قتيلاً فله سلَبه[7] » .

---

(١) الحديث رواه أحمد في مسنده عن أبي قتادة (٥/ ٣٠٠،) والترمذي في كتاب الجهاد من سننه برقم (١٦٩٦) و (١٦٩٧) وقال : حسن غريب صحيح ، وابن ماجه برقم (٢٧٨٩)، كلهم بلفظ : «خير الخيل الأدهم الأقرح الأرثم . .» والأدهم من الخيل : الذي يشتد سواده ، والأقرح : الذي في جبهته قرحة ، وهى بياض يسير دون الغرة ، والأرثم : أبيض الأنف والشفة . وعند أحمد (٤/ ٣٤٥) وأبي داود برقم (٢٥٤٣) والنسائي في (الخيل) والدارمي في الجهاد : « عليكم بكل كميت أغر محجّل . . أو أدهم أغر محجل » والكميت : الفرس في لبته حمرة. والأغر : الذي في جبهته بياض. . والمحجل : الذي قوائمه كلها أو في ثلاث منها بياض. وهو من حديث أبي وهب الجشمي.

(٢) ونحوه حديث : « خير ما اكتحلتم به الإثمد، فإنه يجلو البصر »، رواه الترمذي برقم (٢٠٤٩) من حديث ابن عباس ، قال : حسن غريب ، ورواه بلفظ، « اكتحلوا بالإثمد فإنه يجلو البصر » برقم (٦٧٥٧).

(٣) مثل فعله ﷺ في اللباس ، فقد كان يلبس ما تيسر له دون تكلف ، كما ذكر ابن القيم في هديه في اللباس من (زاد المعاد).

(٤) أي لا أستطيع أن أذكر هذه الأمور ، فكل هذا بمعنى : أفكل هذا ـ يعني : الاستفهام إنكاري . والحديث ذكره الهيثمي في (مجمع الزوائد) وقال : رواه الطبراني وإسناده حسن (٩/ ١٧).

(٥) هو علامة تمييز وتعيين بين المقاتلين ، ليعرف بها الموافق من المخالف.

(٦) أي كنا نري المشركين ونظهر لهم بالرمل أننا أقوياء ، ولم تنهكنا الحُمّى، كما زعموا ، والرمَل : سرعة المشي مع تقارب الخُطا.

(٧) رواه الشيخان وقد تقدم تخريجه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«ومنه : حكم وقضاء خاص ، وإنما كان يتبع فيه البينات والأيمان ، وهو قوله ﷺ لعليّ رضي الله عنه : الشاهد يرى ما لا يراه الغائب .» [1] اهـ [2].

وكلام العلامة الدهلوي هنا يعد أول كلام محرر في تقسيم السُّنة إلى ما هو تشريع ، وما ليس بتشريع قط ، أو على حد تعبيره : ما سبيله سبيل تبليغ الرسالة ، وما ليس سبيله ذلك .

تحرير رشيد رضا لمسألة الاتباع :

وقد عرض العلامة المجدد السيد محمد رشيد رضا لهذه القضية ، حين عرض لتحرير موضوع « الاتِّباع» للنبي ﷺ ، وما دخله من سوء الفهم ، وذلك في تفسير قوله تعالى : ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُم تَهْتَدُونَ﴾ (الآية : ١٥٨ من سورة الأعراف) . قال :

« قوله تعالى هنا : ﴿ واتبعوه ﴾ أعم من قوله في الآية التي قبلها : ﴿ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ فتلك في اتباع القرآن خاصة ، وهذه تشمل اتباعه ﷺ فيما شرعه من الأحكام من تلقاء نفسه ، على القول بأن الله تعالى أعطاه ذلك وأذن له به ، واتباعه في اجتهاده واستنباطه من القرآن إذا كان تشريعًا ، فتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها ، كالجمع بين الأختين المنصوص في القرآن .

« ولا يدخل في اتباعه فيما كان من أمور العادات ، كحديث : « كلوا الزيت وادهنوا به ، فإنه طيب مبارك » رواه أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة والحاكم وصححه ، ورواه غيرهما بألفاظ أخرى ، وأسانيده ضعيفة [3] وحديث : « كلوا البلح

---

(١) رواه أحمد في مسند عليّ (٦٢٨) ، وضعف الشيخ شاكر إسناده لانقطاعه ، ورواه أبو نعيم في الحلية ، والبخاري في التاريخ ، وابن منده في معرفة الصحابة بإسناد متصل جيد ، وله شاهد من حديث أنس رواه القضاعي في الشهاب ، ولهذا ذكره الألباني في سلسلته (الصحيحة) برقم (١٩٠٤) .

(٢) انظر : حجة الله البالغة ، ج ١ ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، نشر دار التراث بالقاهرة .

(٣) هو في سنن ابن ماجه برقم (٣٣٢٠) ، وفي الزوائد : في إسناده عبد الله بن سعيد المقبري ، وهو متروك ، وقد صححه الحاكم فرده الذهبي بأن عبد الله واه ، وكذا ضعفه العراقي كما في فيض القدير (٥/ ٤٣) ، ورواه الترمذي عن عمر ، ورواه هو وأحمد والحاكم عن أبي أسيد : (كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة) ، وقال الحاكم : صحيح وأقره الذهبي ، وقال ابن عبد البر : في سنده من الطريقين اضطراب (الفيض : ٥/ ٤٣) وذكره الألباني في (صحيح الجامع الصغير) برقم (٤٤٩٨) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالتمر» . . إلخ . رواه النسائي وابن ماجه والحاكم عن عائشة وصححوه [1] . فإن هذا من أمور العادات التي لا قربة فيها ولا حقوق تقتضي التشريع .

«بخلاف الحديث : « كلوا لحوم الأضاحي وادخروا » ، رواه أحمد والحاكم عن أبي سعيد وقتادة بن النعمان ، وسنده صحيح [2] ، فإن الأضاحي من النسك ، والأكل منها سنّة ، فأمر المضحي به للندب ، وادخارها جائز له ، ولولا الأمر به لظن تحريمه أو كراهته ، لعلاقة الأضاحي بالعيد ، فهي ضيافة الله تعالى للمؤمنين في أيام العيد .

« فالتشريع إما عبادة أمرنا بالتقرب إلى الله تعالى بها وجوبًا أو ندبًا ، وإما مفسدة نهينا عنها ، اتقاء لضررها في الدين ، كدعاء غير الله فيما ليس من الأسباب التي يتعاون عليها الناس ، وكأكل المذبوح لغير الله ، وتعظيم غير الله بما شُرع تعظيمُ الله به من الذبح له والحلف باسمه ، أو لضررها في العقل أو الجسم أو المال أو العرض أو المصلحة العامة ، وإما حقوق مادية أو معنوية أُمرنا بأدائها لأهلها ، كالمواريث والنفقات ومعاشرة الأزواج بالمعروف ، أو أمرنا بالتزامها لضبط المعاملات كالوفاء بالعقود ، وبإدخال حكم الاستحباب ، وحكم كراهة التنزيه في التشريع تتسع أحكامه في أمور العادات كما يعلم مما يأتي .

«ليس من التشريع الذي يجب فيه امتثال الأمر واجتناب النهي ما لا يتعلق به حق لله تعالى ولا لخلقه ، لا جلب مصلحة ، ولا دفع مفسدة ، كالعادات والصناعات والزراعة والعلوم والفنون المبنية على التجارب والبحث . وما يرد فيها من أمر ونهي يسميه العلماء (إرشادًا) لا تشريعًا ، إلا ما ترتب على النهي عنه وعيد كلبس الحرير.

---

(١) رواه النَّسائي وابن ماجه والحاكم عن عائشة ، ولم يصححه أحد فيما علمت : ذكر المناوي في (الفيض) أن مداره من جميع طرقه على أبي زكير ، قال ابن حبان : لا يحتج به ، روى هذا الحديث ولا أصل له ، وقال العقيلي : لا يتابع عليه ، ولا يعرف إلا به . وفي الميزان : هذا حديث منكر ، رواه الحاكم ولم يصححه مع تساهله في التصحيح ، اهـ ومن ثم أورده ابن الجوزي في الموضوعات (فيض القدير ٥/ ٤٤) وحكم الألباني في (ضعيف الجامع الصغير) بأنه موضوع (رقم ٤٢٠٤)، وإنما وقع السيد رشيد في هذا الخطأ من جراء ثقته برموز الجامع الصغير للسيوطي، وفيها ما فيها .

(٢) اعتمد السيد رشيد في تخريج الحديث على السيوطي ، وفيه تقصير ، فقد رواه مسلم عن أبي سعيد وجابر وعائشة ، والبخاري عن سلمة بن الأكوع ، كما في صحيح الجامع الصغير (٤٥٠٣).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«وقد ظن بعض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أن إنكار النبي ﷺ لبعض الأمور الدنيوية المبنية على التجارب للتشريع ، كتلقيح النخل ، فامتنعوا عنه، فأشاص «خرج ثمره شيصًا» ، أي رديئًا ويابسًا، فراجعوه في ذلك ، فأخبرهم أنه قال ما قال عن ظن ورأي لا عن تشريع ، وقال لهم : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » والحديث معروف في صحيح مسلم ، وحكمته تنبيه الناس إلى أن مثل هذه الأمور الدنيوية والمعاشية كالزراعة والصناعة لا يتعلق بها لذاتها تشريع خاص ، بل هي متروكة إلى معارف الناس وتجاربهم .

«وكانوا يراجعونه أيضًا فيما يشتبه عليهم : أهو من رأيه ـ ﷺ ـ واجتهاده الدنيوي، أو بأمر من الله تعالى ، وإلا لم يكن تشريعا ، كسؤاله عن الموضع الذي اختاره لنزول يوم بدر، قال له الحباب بن المنذر رضي الله عنه : أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا متقدم عنه ولا متأخر؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فلما أجابه بأنه رأي لا وحي ، وأن المعوّل فيه على المصلحة ومكايد الحرب ، أشار بغيره ، فوافقه ﷺ[1].

«وإذا اشتبه على بعض الصحابة بعض هذه المسائل فغيرهم أولى بأن يعرض لهم الاشتباه في كثير منها ، وكان النبي ﷺ يبيّن لأولئك الحق فيما اشتبهوا فيه، ومن ذا يبين ذلك بعده ؟

«ولو لم يتخذ الناس اجتهاده من بعده دينًا يوجبون اتباعه لهان الأمر ، ولكن اتخاذه دينًا قد كثرت به التكاليف ، ووقع المسلمون به في حرج عظيم في الأزمنة التي ضعف فيها الاتّباع ، فثقلت الطباع ، فصاروا يتركون ما ثقل عليهم منها ، وجرّأهم ذلك على ترك المشروع القطعي ، الذي لا حرج ولا عسر فيه . ثم جرهم ذلك إلى ترك بعضهم للدين كله ، ودعوة غيرهم إلى ذلك ! والجامدون من مقلدة الفقه المتشددين في إلزام الأمة التدينّ باجتهاد الفقهاء لا يشعرون بهذه العاقبة السوءى ، ولا يبالون إذا أشعرهم المصلحون !».

قال السيد رشيد رحمه الله : « مثال ما شدد به بعضهم من ذلك صبغ الشيب بالسواد ، وهو من الأمور العادية المتعلقة بالزينة المباحة ؛ إذ لا تعبد فيه ولا حقوق لله ولا للناس ، إلا ما قد يعرض فيه وفي مثله كالزي ، من كون فعله أو تركه

---

(١) يأتي تخريجه في صفحة : ٥٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صار خاصًّا للكفار ، وفعله بعض المسلمين تشبهاً بهم ، أو صار بفعله له مشابها لهم بحيث يعد منهم . وفي ذلك ضرر معنوي وسياسي معروف عند الباحثين في سنن الاجتماع ، من كون المتشبه بقوم تقوى عظمتهم في نفسه ، من حيث تضعف فيها رابطته بقومه وأهل ملته . وقد ورد في صبغ الشيب أخبار وآثار يدل بعضها على استحبابه ـ عادة لاعبادة ـ ولو بالسواد . وفهم بعض العلماء منها استحبابه شرعا ، وفهم آخرون من بعض آخر كراهته بالسواد ، بل قال المشددون منهم بتحريمه ، فصار المقلدون لهم ينكرون على فاعله ، ويعدونه عاصيًا لله تعالى ، فخالفوا هدي السلف في المسألة ، وفي القاعدة العامة وهي عدم الإنكار في المسائل الاجتهادية التي وقع فيها الخلاف » .

وأطال الشيخ رشيد القول في مسألة صبغ الشيب ، وما يتعلق به ، ثم قال :

«وقد صح أنه نبه الأمة إلى أن بعض أعماله في بعض العبادات لم يقصد بها التشريع ، كموقفه في عرفات والمزدلفة ، لئلا يلتزموها تدينًا فيكونوا قد شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله .

«على أن من توخى اتباعه ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ في العادات حبًا فيه ، وتذكرًا لحياته الشريفة ، بدون أن يعتقد أن ذلك من الدين ، أو يوهم الناس ذلك ، أو يتحمل ضررا لا يباح التعرض له شرعًا ، ومن غير أن يكون سبب شهرة مذمومة شرعاً ، فجدير بأن يكون اتباعه هذا مزيد كمال في إيمانه ، من حيث إنه بتحري ذلك يزيد تذكره للنبي ﷺ وحبه له .

«وقد انفرد من الصحابة ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ بتتبع أعماله ﷺ وعاداته وتقلبه في سفره ، ولا سيما سفر حجة الوداع وتحري اتباعه في ذلك كله . ولم يكن سائر الصحابة يفعلون ذلك ، لئلا يعده الناس تشريعًا ، فيكون جناية على الدين . فالزيادة فيه كالنقص منه ، وهي تتضمن تكذيب قوله تعالى : ﴿ اليَومَ أَكمَلتُ لَكُم دِينَكُم ﴾ (المائدة : ٣)» . (١) اهـ .

تقسيم الشيخ شلتوت السُّنة إلى تشريع وغير تشريع :

وممن اهتم ببيان هذا الأمر في عصرنا ، وأعطاه عنوانه الحالي ـ كما ذكرنا في مطلع

(١) تفسير المنار: (ج ٩ ص ٣١٧)، وما بعدها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البحث ـ شيخنا الشيخ محمود شلتوت ، فقد استفاد مما كتبه الدهلوي ورشيد رضا والقرافي وغيرهم ، وقسَّمه تقسيماً حسناً ننقله عنه هنا .

قال رحمه الله :

« ينبغي أن يلاحظ أن كل ما ورد عن النبي ﷺ ، ودوِّن في كتب الحديث من أقواله وأفعاله وتقريراته على أقسام :

أحدها : ما سبيله سبيل الحاجة البشرية ؛ كالأكل والشرب والنوم والمشي والتزاور ، والمصالحة بين شخصين بالطرق العرفية ، والشفاعة ، والمساومة في البيع والشراء .

ثانيها : ما سبيله سبيل التجارب والعادة الشخصية أو الاجتماعية ، كالذي ورد في شئون الزراعة والطب ، وطول اللباس وقصره .

ثالثها : ما سبيله سبيل التدبير الإنساني أخذاً من الظروف الخاصة ، كتوزيع الجيوش على المواقع الحربية ، وتنظيم الصفوف في الموقعة الواحدة والكمون والكر والفر ، واختيار أماكن النزول ، وما إلى ذلك مما يعتمد على وحي الظروف والدربة الخاصة .

وكل ما نقل من هذه الأنواع الثلاثة ليس شرعًا يتعلق به طلب الفعل أو الترك[1] ، وإنما هو من الشئون البشرية التي ليس مسلك الرسول ﷺ فيها تشريعًا ولا مصدر تشريع .

السنّة تشريع عام وخاص :

رابعها : ما كان سبيله التشريع ، وهو على أقسام :

«أولاً» : ما يصدر عن الرسول ﷺ على وجه التبليغ بصفته رسولاً ، كأن يبين مجملاً في الكتاب ، أو يخصص عامًّا ، أو يقيد مطلقًا ، أو يبين شأنًا في العبادات أو الحلال والحرام ، أو العقائد والأخلاق ، أو شأنًا متصلاً بشيء مما ذكر.

وهذا النوع تشريع عام إلى يوم القيامة ، فإن كان منهيًّا عنه اجتنبه كل إنسان بنفسه ، لا يتوقف في ذلك على شيء سوى العلم به والوصول إليه .

---

(١) لنا تعليق على كلام الشيخ ـ رحمه الله ـ هنا ، سيأتي بعد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«ثانيا» : ما يصدر عنه ﷺ بوصف الإمامة والرياسة العامة لجماعة المسلمين، كبعث الجيوش للقتال ، وصرف أموال بيت المال في جهاتها ، وجمعها من محالها ، وتولية القضاة والولاة ، وقسمة الغنائم ، وعقد المعاهدات ، وغير ذلك مما هو شأن الإمامة والتدبير العام لمصلحة الجماعة .

وحكم هذا أنه ليس تشريعًا عامًّا ، فلا يجوز الإقدام عليه إلا بإذن الإمام ، وليس لأحد أن يفعل شيئًا منه من تلقاء نفسه بحجة أن النبي فعله أو طلبه .

«ثالثًا» : ما يصدر عنه ﷺ بوصف القضاء ، فإنه كما كان رسولاً يبلغ الأحكام عن ربه ، ورئيسًا عامًّا للمسلمين ينظم شئونهم ويدبر سياستهم، كان عليه الصلاة والسلام ـ مع ذلك ـ قاضيًا ، يفصل في الدعاوي بالبينات أو الأيمان أو النكول .

«وحكم هذا أنه كسابقه ـ ليس تشريعًا عامًّا، فلا يجوز لأي إنسان أن يقدم عليه بناء على قضائه به ، وفصله فيه بحكم معين ، بين من حكم بينهم ، بل يتقيد المكلف فيه بحكم الحاكم ، لأن الرسول تصرف بوصف القضاء، ومن هذه الجهة . لا يلزم المكلف إلاّ بقضاء مثله . فمن كان له حق على آخر ، ويجحده ، وله عليه بينة فليس له أن يأخذ حقه إلا بحكم الحاكم ، لأن هذا هو الذي كان شأن أخذ الحقوق عند التجاحد على عهد الرسول ﷺ .

«هذا ومن المفيد جدًّا معرفة الجهة التي صدر عنها التصرف ، وكثيرًا ما تخفى فيما ينقل عنه ﷺ ، ولا ينظر فيه إلا من جهة أن الرسول فعله أو قاله أو أقره . ومن هنا، نجد أن كثيرا مما نقل عنه ﷺ صور بأنه شرع أو دين ، وسنة أو مندوب ، وهو لم يكن في الحقيقة صادرًا على وجه التشريع أصلاً ، وقد كثر ذلك في الأفعال الصادرة عنه ﷺ بصفة البشرية ، أو بصفة العادة والتجارب .

«ونجدا أيضًا أن ما سيق على وجه الإمامة أو القضاء قد يؤخذ على أنه تشريع عام، ومن ذلك تضطرب الأحكام وتختلط الجهات .

«وقد تكون معرفة الجهة فيما ينقل من كل ذلك . واضحة جلية ، فيتقيد كل فعل بالجهة التي صدر عنها . وقد يشتبه الأمر على الناظر في معرفة الجهة التي صدر عنها الفعل ، فيقع خلاف بين العلماء في صفة التشريع ، تبعًا لاختلافهم في الجهة التي صدر عنها ذلك التشريع .

«ولنضرب لذلك أمثلة يتضح منها هذا النوع :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«١ ـ صح أن النبي ﷺ قال : « من أحيا أرضًا ميتة فهي له » .

واختلف العلماء في أن ذلك : هل صدر عنه بطريق التبليغ والفتوى فيكون حكمًا عامًّا ، لكل أحد أن يحيي أرضا لا حق لأحد فيها ، فتكون له ، أذن الإمام في ذلك أم لم يأذن ، أو أنه صادر عنه باعتبار إمامته ورياسته ، فلا يكون حكمًا عامًّا ، ولا يجوز لأحد إحياء الأرض المذكورة إلا بإذن الإمام ؟

ذهب إلى الأول جمهور الفقهاء ، وإلى الثاني أبو حنيفة .[١]

«٢ ـ صح أن النبي ﷺ قال لهند بنت عتبة لما قالت له : إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني وولدي ما يكفيني ، قال لها : « خذي لك ولولدك ما يكفيك بالمعروف [٢] » . واختلف العلماء في هذا : هل كان بطريق الفتوى والتبليغ ، فيجوز لكل من ظفر بحقه أن يأخذه بغير علم خصمه ؟ أو كان بطريق القضاء ، فلا يجوز لأحد أن يأخذ حقه أو جنس حقه ، إذا تعذر أخذه من غريمه ، إلا بقضاء القاضي ؟

«وهذه هي المسألة المعروفة عند الفقهاء بمسألة (الظفر)، [٣] ولهم فيها أقوال وترجيحات [٤].

«٣ ـ صح أن النبي ﷺ قال : « من قتل قتيلاً فله سلبه » .

والسَّلب هو ما على القتيل من ملابس وأدوات . واختلف العلماء أيضًا فيه على هذا النحو المتقدم ، فمنهم من يرى أنه تصرف بالإمامة ـ فلا يستحق أحد سلب مقتوله ، إلا أن يقول الإمام ذلك في الموقعة . ومنهم من يرى أنه تبليغ ، فيستحق كل قاتل سلب قتيله ، أعلن الإمام أم لا .

---

(١) وقد ذكرت هذه المسألة في كتاب (إحياء الموات) من كتب الحنفية . وراجع فيها إن شئت : الجزء السادس من شرح (الزيلعي) والتعليقات عليه .

(٢) رواه البخاري عن عائشة في مواضع من صحيحه . ورواه مسلم أيضًا ، وقد مر تخريجه .

(٣) معناها : أن الإنسان إذا كان له حق عند غيره ، وقدر على أخذه بعينه ، أو أخذ ما يساوي قدره من مال ذلك الغير ، فهل يجوز له أخذ ذلك منه أو لا ؟ اختلف الفقهاء في ذلك ، فمنهم من جوزه سواء كان المأخوذ من جنس حقه أم لا ، وسواء علم غريمه أو لم يعلم ، بشرط ألا يترتب عليه فتنة ولا رذيلة ، ومنهم من منع ، ومنهم من فصل .

(٤) انظر إن شئت : (إغاثة اللهفان) لابن القيم ، وباب (العارية) من كتاب (سبل السلام) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«قال الكمال : «ولا خلاف في أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال ذلك ، وإنما الكلام في أن هذا كان منه نَصْبَ شرع على العموم في الأوقات والأحوال ، أو كان تحريضًا قاله في وقائع فيخصها » . فعند الشافعي : هو نصْبُ شرع ، لأنه هو الأصل في قوله : لأنه مبعوث لذلك ، إلى آخر المسألة في فصل التنفيل من الجزء الرابع في (فتح القدير) .

«هذا ، وقد عرض لهذه المسألة ـ بوجه عام ـ الإمام القرافي في كتابه (الفروق) كما عرض لها الإمام ابن القيم الجوزي في كتابه « زاد المعاد ـ جـ٢ » في أثناء الكلام على غزوة حنين ، وعرض لها ـ كما أشرنا ـ كثير من الفقهاء في جزئيات المسائل التي انبنى الخلاف فيها بين الأئمة على الخلاف في جهة التصرف الذي صدر عن الرسول .

ومن هذا نرى أن كل الفقهاء مجمعون على تقرير مبدأ التفرقة بين الجهتين في مصدر التصرف ، وأنه معترف به عندهم [1]. اهـ .

هذا ما كتبه الشيخ شلتوت في كتابه (فقه القرآن والسنة : القصاص) وهو يضم جملة محاضرات ألقاها قديمًا على طلبة الدراسات العليا في جامعة فؤاد الأول (القاهرة فيما بعد) ثم أودعها كتابه (الإسلام عقيدة وشريعة) .

ولا يفوتني أن أعقب هنا على بعض كلام شيخنا شلتوت ، رحمه الله ، وخصوصًا فيما يتعلق بالقسم الأول الذي لم ير السنَّة فيه للتشريع ، فأقول :

ليس كل ما يتعلق بالأكل والشرب والنوم والمشي والجلوس والتزاور ونحوها سبيله سبيل الحاجة البشرية ، بل ينبغي أن نفرق هنا بين ما ثبت من هذا (بفعله) عليه السلام ، وما ثبت (بقوله) .

(فالفعل) ، كما ذكرنا من قبل ، لا يدل على أكثر من المشروعية ، ولا يدل على وجوب ولا استحباب في نفسه ، كما في قضية الأكل باليد وما شابهها ، ما لم يثبت قصد القربة فيه .

ولكن من فعل ذلك تشبُّها بالرسول الكريم ، وحبًّا لكل ما صدر عنه ، فهو محسن ومأجور بنيته ، كما نبهنا لذلك من قبل ، وأشار إليه السيد رشيد في بحثه ، وإلى حسن أثره في نفس صاحبه بالقيود التي ذكرها ، كما هي طريقة ابن عمر رضي الله عنهما .

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة ، للشيخ محمود شلتوت ص ٤٢٧ ـ ٤٣١ ، ط مطبعة الأزهر ١٩٥٩ م .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأما (القـول) في هذا المجال ، فقد يـدل على الإرشاد كما قال صاحـب المنار ، وكما نبه عليه علماء الأصـول . وقد يدل على الاستحباب في الأمـر ، أو الكراهية في النهـي ، وقد يـدل على الإيجاب في الأمـر أو التحريـم في النهـي ، تبعًا للقـرائن ، كالتشديـد في الأمر ، والوعيد في النهي ، كما ورد في قضية الأكـل بالشمال ، ولبس الحرير ، والأكـل أو الشرب في آنية الذهب والفضـة ونحوها ، مما دلـت الأدلة على تحريمه .

ومثل ذلـك ، يقال فيما سبيلـه سبيل التجـربة والعـادة ، كالـذي ورد في الطب وطول اللباس وقصره ، فبعض ما ورد في الطب يحمل طابع التجربة بالفعل ، ولهذا لا يؤخذ مأخذ العموم لكل الناس وكل الأحوال ، وقد نبه المحقق ابن القيم (في زاد المعاد) إلى كثير من ذلك ، وسيأتي البحث فيه .

وبعضها يحمل طابع التشريع والتوجيه مثل : «يا عباد الله : تداووا ، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داء واحد : الهرم » [1] « تداووا ولا تداووا بحرام » [2] وغير ذلك من الأحاديث التي وضعت مبادئ أساسية ومهمة للصحة والطب [3].

ومثل ذلك موضوع الثياب ، فقد ورد النهي عن لبس الحرير ـ وكذلك الذهب ـ للرجال ، كما ورد وعيد شديد في جملة أحاديث في تطويل الثوب أو إسباله ، بعضها ـ وهو الأكثر ـ مقيد بقصد الخيلاء ، وبعضها مطلق ، وينبغي أن يحمل المطلق هنا على المقيّد ؛ على أن من قصّر ثوبه اقتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام ، فهو مأجور كما قلنا .

ولـلإسلام في اللبـس ، كما في الأكل والشرب ، آداب متميـزة لها أهداف دينيـة وأخلاقية واجتماعية واقتصادية وسياسية ينبغي ألا نهملها ، وعسى أن نعرض لها في مناسبة أخرى .

---

(١) رواه أحمد وأصحاب السنـن ، وابن حبـان والحاكم عـن أسامـة بن شريـك، كما في صحيح الجامع الصغير (٢٩٣٤)، وقد تقدم .

(٢) جزء من حديث رواه أبو داود في الطب عن أبي الدرداء (٣٨٧٤) .

(٣) انظر : (السنة وعلم الصحة) في القسم الثاني من هذا الكتاب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تحقيق الطاهر بن عاشور :

وممن عني بهذا الأمر من علماء العصر ، وشرحه وفصله ومثّل له ، العلامة محمد الطاهر بن عاشور شيخ علماء تونس في كتابه : « مقاصد الشريعة الإسلامية » . فقد نقل ملخّص كلام القرافي في « الفروق » ، ثم عقب عليه بقوله :

« إن لرسول ﷺ صفات وأحوالاً تكون باعثًا على أقوال وأفعال تصدر منه . فبنا أن نفتح لها مشكاة تضيء في مشكلات كثيرة لم تزل تعنت الخلق ، وتشجي الحلق . وقد كان أصحابه يفرقون بين ما كان من أوامر الرسول صادرًا في مقام التشريع ، وما كان صادرًا في غير مقام التشريع ، وإذا أشكل عليهم أمر سألوا عنه .

ففي الحديث الصحيح : أن بَـرِيرة لما أعتقها أهلها كانت زوجة لمغيث العبد ، فملكت أمر نفسها بالعتق ، فطلقت نفسها . وكان مغيث شديد المحبة لها ، وكانت شديدة الكراهية له ، فكلم رسول الله ﷺ في ذلك ، فكلمها رسول الله في أن تراجعه فقالت : أتأمرني يا رسول الله ؟ قال : « لا ، ولكني أشفع » فأبت أن تراجعه ، ولم يثرِّ بها رسول الله ﷺ ولا المسلمون .

وفى صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله : أنه مات أبوه عبد الله بن عمرو ابن حرام . وعليه دين ، فكلم جابر رسول الله ﷺ في أن يكلم غرماء أبيه أن يضعوا من دينه ، فطلب النبي عليه الصلاة والسلام منهم ذلك ، فأبوا أن يضعوا منه . قال جابر : « فلما كلمهم رسول الله كأنهم أُغروا بى » . ولم يثرِّبهم المسلمون على ذلك . ونظائر ذلك ستأتي .

«على أن علماء أصول الفقه قد تعرضوا ، في مسائل السُّنة النبوية ، إلى ما كان من أفعال رسول الله ﷺ جِبليًّا أنه لا يدخل في التشريع . وما ذلك إلا لأنهم لم يهملوا ما كان من أحوال رسول الله ﷺ أثرًا من آثار أصل الخلقة لا دخل للتشريع والإرشاد فيه . وترددوا في الفعل المحتمل كونه جبليًّا وتشريعيًا كالحج على البعير . وقد يغلط بعض العلماء في بعض تصرفات رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فيعمد إلى القياس عليها قبل التثبت من سبب صدورها » .

قال الشيخ رحمه الله :

«وقد عرض لي الآن أن أعد من أحوال رسول الله ﷺ ـ التي يصدر عنها قول منه أو فعل ـ اثني عشر حالاً . منها ما وقع في كلام القرافي ، ومنها ما لم يذكره . وهي :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التشريع ، والفتوى ، والقضاء ، والإمارة ، والهدي ، والصلح ، والإشارة على المستشير ، والنصيحة ، وتكميل النفوس ، وتعليم الحقائق العالية ، والتأديب ، والتجرد عن الإرشاد» .

وقد تحدث الشيخ رحمه الله عن هذه الأحوال ، وضرب لها الأمثلة ، مما قد نوافقه في بعضها أو نخالفه ، وأطال في ذلك فليرجع إليه .

والمقصود ، أنه يتفق مع من ذكرنا من العلماء أن من السنة ما ليس بتشريع عام دائم ، ومنها ما لا يدخل باب التشريع أصلاً .

وحسبي أن أذكر آخر الأحوال التي عددها ، وهي حالة التجرد عن الإرشاد قال :

«وأما حال التجرد عن الإرشاد ، فذلك ما يتعلق بغير ما فيه التشريع والتدين وتهذيب النفوس وانتظام الجماعة . ولكنه أمر يرجع إلى العمل في الجبلة ، ومن دواعي الحياة المادية ، وأمره لا يشتبه ، فإن رسول الله ﷺ يعمل في شئونه البيتية ومعاشه الحيوي أعمالاً لا قصد منها إلى تشريع ، ولا طلب متابعة . وقد تقرر في أصول الفقه أن ما كان جبليًّا من أفعال رسول الله ﷺ لا يكون موضوعاً لمطالبة الأمة بفعل مثله ، بل لكل أحد أن يسلك ما يليق بحاله . وهذا كصفات الطعام واللباس والاضطجاع والمشي والركوب ونحو ذلك ، سواء كان ذلك خارجا عن الأعمال الشرعية كالمشي في الطريق والركوب في السفر ، أم كان داخلاً في الأمور الدينية ، كالركوب على الناقة في الحج . ومثل الهُوِيّ باليدين قبل الرجلين في السجود عند من رأى أن رسول الله ﷺ أهوى بيديه قبل رجليه حين أسنّ وبدَنَ . وهو قول أبي حنيفة .

«كذلك ما يروى أن النبي ﷺ نزل في حجة الوداع بالمحصّب الذي هو خيف بني كنانة . ويقال له : الأبطح . فصلى فيه الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ثم هجع هجعة ، ثم انصرف بمن معه إلى مكة لطواف الوداع . فكان ابن عمر يلتزم النزول به في الحج ، ويراه من السنّة ويفعل كما فعل رسول الله ﷺ .

وفي البخاري عن عائشة أنها قالت : « ليس التحصيب بشيء ؛ إنما هو منزل نزله رسول الله ﷺ ليكون أسمح لخروجه إلى المدينة» . تعنى لأنه مكان متسع يجتمع فيه الناس . وبقولها ، قال ابن عباس ومالك بن أنس .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«وكذلك حديث الاضطجاع على الشق الأيمن بعد صلاة الفجر .

وبعد ، فلا بد للفقيه من استقراء الأحوال ، وتوسّم القرائن الحافّة بالتصرفات النبوية . فمن قرائن التشريع : الاهتمام بإبلاغ النبي ﷺ إلى العامة ، والحرص على العمل به ، والإعلام بالحكم وإبرازه في صور القضايا الكلية ، مثل قول رسول الله ﷺ : « ألا لا وصية لوارث » ، وقوله : « إنما الولاء لمن أعتق » .

«ومن علامات عدم قصد التشريع : عدم الحرص علي تنفيذ الفعل ، مثل قول النبى ﷺ في مرض الوفاة : « آتوني أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده » .

«قال ابن عباس : فاختلفوا ، فقال بعضهم : حسبنا كتاب الله ، وقال بعضهم : قدموا له يكتب لكم ، ولا ينبغي عند نبي تنازُع . فلما رأى اختلافهم قال : «دعوني فما أنا فيه خير » .

واعلم أن أشد الأحوال التي ذكرناها اختصاصا برسول الله ﷺ هى حالة التشريع ، لأن التشريع هو المراد الأول لله تعالى من بعثته حتى حصر أحواله فيه في قوله تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول ﴾[1]. فلذلك يجب المصير إلى اعتبار ما صدر عن رسول الله ﷺ من الأقوال والأفعال ــ فيما هو عوارض أحوال الأمة ـ : صادرًا مصدر التشريع ، ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك .

«وقد أجمع العلماء على الأخذ بخبر سعد بن أبي وقاص ، حيث سأل النبي ﷺ أن يوصي في ماله . قال له : « الثلث والثلث كثير » فجعلوا الوصية بالزائد على الثلث مردودة إلا أن يجيزها الورثة ، ولم يحملوه محمل الإشارة والنصيحة مع ما قارنه مما يسمح بذلك وهو قوله : « إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » فإنه مؤذن بالنظر إلى حالة خاصة بسعد وورثته وشدة فقرهم ، ومع كونه جرى بين رسول الله ﷺ وبين سعد خاصة ، ولم يفعل به رسول الله ﷺ ولا رواه عنه غير سعد . فكان للفقيه أن يجيز الوصية بأكثر من الثلث لمن كان ورثته أغنياء ، ولم يقل به أحد من أهل العلم ، أو لمن لم يكن له وارث ، وقد قال بذلك بعض أهل العلم فيما نقل ابن حزم في (المحلى) عن ابن مسعود وعبيدة السلماني وطائفة ، وهو قول شاذ» [2] اهـ .

---

(١) آل عمران : ١٤٤ .

(٢) انظر : مقاصد الشريعة الإسلامية : ٣٠ـ٣٩ ط . الشركة التونسية للتوزيع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقفة للمناقشة والتمحيص :

ولا بد لنا هنا بعد هذه النقول ، من وقفة متأنية أمام هذه القضية الأصولية الهامة ، نراجع فيها الأقوال ، ونناقش الآراء ، محاولين أن نمحصها ونخرج منها برأي ، في ضوء النصوص والقواعد والمقاصد ، سائلين الله تعالى أن يلهمنا الصواب ، وألا يحرمنا الأجر ، وأن يحرر أنفسنا من أسر التعصب والتقليد ، واتباع الهوى ، وسوء الظن بالآخرين .

حقيقتان لا ينبغي الخلاف عليهما :

ومن اللازم هنا لتحقيق هذا الموضوع أن أبرز حقيقتين ، أحسب أن لا خلاف عليهما ، أو لا ينبغي الخلاف عليهما ، وهما :

أولاً : أن جمهرة السنَّة ـ سواء كانت أقوالاً أم أفعالاً أم تقريرات ـ هي للتشريع ، ومطلوب فيها الاتباع للنبي ﷺ ، الذي جعل الله الهداية في اتباعه : ﴿ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُم تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف : ١٥٨) .

ثانيًا : أن من السنة ما ليس للتشريع ، ولا يجب الطاعة فيه ، وهو ما كان من أمر الدنيا المحض ، وهو الذي جاء في الحديث الصحيح : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » ، وهو الذي ورد في تأبير النخل ، كما سبق بيانه .

وإذا كانت هاتان الحقيقتان متفقًا عليهما ، فإن الخلاف إنما هو في تطبيق هذا المبدأ على بعض الأحاديث ، أو في بعض المجالات ، مثل الأحاديث المتعلقة بالأكل والشرب ، والملبس ، والزينة ، والاكتحال ، والطب ، ووصف أدوية معينة ، ونحو ذلك : هل هي من (أمر دنيانا) الموكول إلينا . ونحن أعلم به ؛ لأن الوحي لم يجئ ليلزم الناس فيه بتكليف يأمر أو ينهى ، أو هو من (أمر ديننا) الذي يجب أن نتلقاه من الوحي ، ونلتزم بطاعته فيه ؟

ويكمل هذا ما صدر عن الرسول ﷺ من تشريعات ، ليس لها صفة العموم والدوام ، بل قصد بها علاج أوضاع معينة في ظروف معينة . وهو ما يترجم عنه بأنه صدر عنه بوصف الإمامة والرئاسة أو القضاء ، وأصله كالمتفق عليه ، ولكن الخلاف في التطبيق على الجزئيات المختلفة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بين الإفراط والتفريط :

وعلى عادتنا في جـل قضايانا المعـاصرة ـ وبخاصة القضـايا الفكرية ـ نقف بين طرفي الإفراط والتفريط ، في هذه القضية الكبرى .

فمنا من يريد أن يخلع عن السنَّة رداء التشريع في الأمور المذكورة ، وفى غيرها من شئون المعـاملات في هذه الدنيـا ، متوكئاً على الحديـث المذكور : « أنتم أعلم بـأمر دنياكم » .

ومنا مـن ينكر أن يكـون من السنَّة شيء ليـس للتشريع ، محتجًّا بـأننا مـأمورون باتباع سنَّة نبينا ﷺ ، وهذا ثابـت بالنصوص والإجماع ، فكيف تكون هناك سنَّة لا تتبع ؟

مفهوم (السنّة) عند الصحابة والسلف :

وأود أن أذكر أن السـابقين من علماء الصحـابة والتـابعين لهم بإحسـان لم يُغفِلوا هذه القضية ، بل بحثوا فيها بالفعل ، ولكن ليس تحت عنوان (التشريع) أو (عدم التشريع) في السنة .

بل كان البحث يثور عندهم تحت عنوان آخر : هل هذا العمل ـ الذي ثبت عن الرسول ﷺ ـ سنة أو ليس بسنة ؟ وهذا يعني أمرين في غاية الأهمية :

أولهما : أن ما كان سنَّة فهو مطلوب الاتباع .

وثانيهما : أن بعض ما جاء عن النبي ﷺ ليـس بسنة وهو ما يعبر عنه المعاصرون بأنه ليس للتشريع .

وسر ذلك : أن مصطلح (السنَّة) كما استقر عليه الأمر وسجله العلم الإسلامي ـ وهو : ما روي عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير ـ أعم من المعنى اللغوي ، الذي كـان الصحابة يفهمونـه من اللفظ عنـد إطلاقه ، ويعبرون به عما ثبـت عن رسول الله ﷺ من الأمور العملية ، التي هى موضع الاتباع والاقتداء .

وسبب ذلـك أن كلمة (السنَّـة) في معناها اللغـوي ـ الـذي هو الأصـل فيها ـ تعني : الطريقة المتبعة ، وهذا لا يكون إلا فيما قصد به التشريع والاتباع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فلما انتقل معناها إلى كل ما نقل عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة أو سيرة ، كما اصطلح عليه أهل العلم أخيرًا ـ ولا مشاحة في الاصطلاح ـ دخل في السنَّة ما يكون للتشريع وهو الغالب ، وما قد لا يكون للتشريع ، وهو قليل . ولكنه موجود .

ومن أخطر الأمور في مجال العلم ـ التي كثيرًا ما تضلل الدارسين ـ : حمل عبارات المتقدمين على مصطلحات المتأخرين الحادثة .

فالمتقدمون ـ مثلا ـ يطلقون كلمة (النسخ) ويعنون بها ما لا يعنيه المتأخرون منها . وكذلك كلمة (السنَّة) .

أعود فأقول : إن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كانوا يبحثون الموضوع الذي نتحدث عنه اليوم تحت عنوان : سنَّة أم غير سنَّة؟ لا تحت عنوان : تشريع أم ليس بتشريع؟

نجد هذا بوضوح فيما رواه الإمام أحمد في مسنده ، قال : حدثنا سريج ويونس قالا : حدثنا حماد ـ يعني ابن سلمة ـ عن ابن عاصم الغنوي عن أبي الطفيل قال :

قلت لابن عباس : يزعم قومك أن رسول الله ﷺ رمل بالبيت وأن ذلك سنَّة ؟ فقال : صدقوا وكذبوا قلت : ما صدقوا وما كذبوا ؟! قال : صدقوا ، رمل رسول الله ﷺ بالبيت ، وكذبوا ، ليس بسنَّة ، إن قريشا قالت زمن الحديبية : دعوا محمدًا وأصحابه حتى يموتوا موت النَّغَف [1] فلما صالحوه على أن يقدموا من العام المقبل ، ويقيموا بمكة ثلاثة أيام ، فقدم رسول الله ﷺ ، والمشركون من قبل قعيقعان ، فقال رسول الله لأصحابه : « ارملوا بالبيت ثلاثًا ، وليس بسنَّة » .

قلت : ويزعم قومك أنه طاف بين الصفا والمروة على بعير ، وأن ذلك سنَّة؟ فقال : صدقوا وكذبوا ، فقلت : وما صدقوا وكذبوا ؟! فقال : صدقوا ، قد طاف بين الصفا والمروة على بعير ، وكذبوا ، ليست بسنَّة ، كان الناس لا يُدْفَعُون عن رسول الله ولا يُصْرَفُون عنه ، فطاف على بعير ، ليسمعوا كلامه ، ولا تناله أيديهم .

قلت : ويزعم قومك أن رسول الله ﷺ سعى بين الصفا والمروة ، وأن ذلك سنَّة؟ قال : صدقوا . إن إبراهيم لما أمر بالمناسك ، عرض له الشيطان عند المسعى ، فسابقه ، فسبقه إبراهيم ، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة ، فعرض له الشيطان ،

---

(١) النَّغَف (بفتح النون والغين) : دود تكون في أنوف الإبل والغنم ، واحدتها نغفة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى ، فرماه بسبع حصيات ، قال : فتلّه للجبين ، قال يونس : وثم تله [1] للجبين ، وعلى إسماعيل قميص أبيض ، وقال : يا أبت ، إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفنني فيه ، فعالجه ليخلعه ، فنودي من خلفه ﴿ أن يا إبراهيم قد صدَّقتَ الرؤيا ﴾[2] فالتفت إبراهيم ، فإذا هو بكبش أبيض أقرن أعين . . . الحديث[3].

هنا نرى أن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وهو حبر الأمة ، يرى أن أفعال النبي ﷺ في الحج ، منها ما هو سنَّة تطاع وتتبع ، ومنها ما ليس بسنَّة ، برغم ثبوتها عنه ﷺ .

بعض أفعال الحج ليس بسنّة :

ومن المعلوم أن أفعال الحج تغلب عليها الصبغة التعبدية ، ومع ذلك نجد بعض أفعال النبي ﷺ في الحج قد اختلف فيها الصحابة : أتعتبر من السنَّة والمناسك أم لا تعتبر ؟

من ذلك : النزول بالمحَصّب ليلة النفر من منى . والمحصَّب ـ ويقال له : الأبطح ـ البطحاء التي بين منى ومكة ، وهي ما انبطح من الوادي واتسع .

فقد روى نافع عن ابن عمر : أنه كان يرى التحصيب سنَّة ، وكذلك فعل عمر رضي الله عنه . روى ذلك البخاري ومسلم .

---

(١) تله : القاه وصرعه . (٢) الصافات : ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٣) هو في المسند برقم (٢٧٠٧)، وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح ، أبو عاصم الغنوى : ثقة ، وثقه ابن معين ، وترجمه البخاري في الكنى رقم (٥٢٧)، وأشار إلى هذا الحديث كعادته في إشاراته الدقيقة . قال : « أبو عاصم عن ابن عباس ، قال : الذبيح ، قال حجاج بن منهال عن حمادة بن سلمة » ، والحديث نقل الحافظ ابن كثير في التفسير (٧ : ١٤٩) آخره عن هذا الموضوع ، من أول قوله « لما أمر إبراهيم بالمناسك » . وكذلك صنع الهيثمي في مجمع الزوائد (٣ : ٣٥٩ و ٨ : ٢٠٠ ـ ٢٠١) من أول قوله : « قلت لابن عباس : يزعم قومك أن رسول الله ﷺ سعى بين الصفا والمروة » وقال في الموضوع الأول : « رواه أحمد والطبراني في الكبير ، ورجاله ثقات » . وقال في الثاني : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، غير أبي عاصم الغنوي ، وهو ثقة » ، وكذلك ذكر السيوطي جزءًا منه في الدر المنثور (٥ : ٢٨٠) ونسبه أيضًا لابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان . وانظر: المسند : ٢٠٢٩ ، ٢٠٧٧ ، ٢٦٨٨ ، ٢٧٨٣ . اهـ . وانظر الحديث (١٢٦٤) في كتاب الحج من صحيح مسلم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحجته أن النبي ﷺ نزل بالمحصب ، وصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء .

ولكنّ لعائشة وابن عباس رأيًا آخر :

روى البخاري عن ابن عباس، قال : ليس التحصيب بشيء ، إنما هو منزل نزله رسول الله ﷺ . ومعنى (ليس بشيء) : أي ليس بسنة تتبع .

وروى عن عائشة، قالت : إنما كان منزلاً نزله النبي ﷺ ليكون أسمح لخروجه . وروى عنها مسلم قولها : نزول الأبطح ليس بسنّة ، إنما نزله . . إلخ .

وقد بينت عائشة في حديث لها رواه أحمد سبب نزوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالمحصب : « قالت : والله ! ما نزلها إلا من أجلي » . ذكر ذلك الحافظ في الفتح[1].

قال ابن القيم في « زاد المعاد » :

«وقد اختلف السلف في التحصيب ، هل هو سنّة : أو منزلُ اتفاقٍ ؟ على قولين . قالت طائفة : هو من سنن الحج ، فإن في « الصحيحين » عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال حين أراد أن ينفر من منى : « نحن نازلون غدًا إن شاء الله بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر[2] » . يعني بذلك المحصب . وذلك أن قريشًا وبني كنانة ، تقاسموا على بنى هاشم ، وبني عبد المطلب ، ألا ينكحوهم ، ولا يكون بينهم وبينهم شيء حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ في المكان . فقصد النبي ﷺ إظهار شعائر الإسلام الذي أظهروا فيه شعائر الكفر ، والعداوة لله ورسوله . وهذه كانت عادته، صلوات الله وسلامه عليه : أن يقيم شعائر التوحيد في مواضع الكفر والشرك ، كما أمر النبي ﷺ أن يبنى مسجد الطائف موضع اللات والعزى .

«قالوا : وفى « صحيح مسلم » : عن ابن عمر ، أن النبي ﷺ ، وأبا بكر ، وعمر ، كانوا ينزلونه . وفي رواية لمسلم ، عنه : أنه كان يرى التحصيب سنّة[3].

---

(١) فتح الباري ج ٣/ ٥٩١ ط. السلفية .

(٢) أخرجه البخاري ٣/ ٣٦١ في الحج : باب نزول النبي ﷺ بمكة ، ومسلم (١٣١٤) في الحج : باب استحباب النزول بالمحصب .

(٣) أخرجه مسلم (١٣١٠) (٣٣٧) و (٣٣٨) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«وقال البخاري عن ابن عمر : كان يصلي به الظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، ويهجع ، ويذكر أن رسول الله ﷺ فعل ذلك [1] .

«وذهب آخرون ـ منهم ابن عباس ، وعائشة ـ إلى أنه ليس بسنَّة ، وإنما هو منزل اتفاق ، ففي « الصحيحين » عن ابن عباس، قال : ليس المحصب بشيء ، وإنما هو منزل نزله ﷺ ليكون أسمح لخروجه [2] .

«وفي « صحيح مسلم » : عن أبي رافع : لم يأمرني رسول الله ﷺ أن أنزل بمن معي بالأبطح ، ولكن أنا ضربت قبته ، ثم جاء فنزل [3] ، فأنزل له الله فيه بتوفيقه ، تصديقًا لقول رسوله : « نحن نازلون غدًا بخيف بني كنانة » ، وتنفيذاً لما عزم عليه ، وموافقة منه لرسوله صلوات الله وسلامه عليه» [4] .

ومثل ذلك الرَّمَل في الطواف . وهو الإسراع في المشي في طواف القدوم في الأشواط الثلاثة الأولى .

فرأى الجمهور أنه سنَّة ؛ لأن النبي ـ ﷺ ـ فعله وأمر به .

وقال ابن عباس ـ كما نقلنا عن المسند من قبل ـ : ليس هو بسنَّة ، من شاء رمل ، ومن شاء لم يرمل [5] .

وبيَّن ابن عباس ، فيما رواه البخاري : سبب أمر النبي بالرمل ، فقال : قدم رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه ، فقال المشركون : إنه يقدم عليكم وفد وهنتهم حُمّى يثرب ، فأمرهم النبي ـ ﷺ ـ أن يرملوا في الأشواط الثلاثة ، وأن يمشوا بين الركنين ، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم [6].

وقد هم عمر رضي الله عنه أن يترك الرمَل ، ثم رجع عن همه .

ففي البخاري : أنه قال للركن (الحجر الأسود) : أما والله : إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت النبي ﷺ استلمك ما استلمتك .

---

(١) أخرجه البخاري ٣/ ٤٧٢ في الحج : باب النزول بذي طوىً قبل أن يدخل مكة .
(٢) أخرجه البخاري ٣/ ٤٧١ في الحج : باب المحصب ، ومسلم (١٣١٢) .
(٣) أخرجه مسلم (١٣١٣) .
(٤) من (زاد المعاد) ، ج ٣/ ٢٩٤ ، ٢٩٥ ط . مؤسسة الرسالة بتحقيق شعيب وعبد القادر الأرنؤوط .
(٥) الفتح ، ج ٣/ ٤٧١ .
(٦) الحديث في البخاري برقم ١٦٠٢ مع فتح الباري ط . دار الفكر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فاستلمه . ثم قال : ما لنا وللرمل ؟! إنما كنا راءينا به المشركين ، وقد أهلكهم الله ! ثم قال : شيء صنعه النبي ـ ﷺ ـ فلا نحب أن نتركه [1] .

ومحصل الحديث ـ كما في الفتح ـ أن عمر كان قد همّ بترك الرمل في الطواف ، لأنه عرف سببه ، وقد انقضى ، فهم أن يتركه لفقد سببه ، ثم رجع عن ذلك ، لاحتمال أن تكون له حكمة ما اطلع عليها . فرأى أن الاتباع أولى من طريق المعنى . وقال . وأيضًا إن فاعل ذلك إذا ما تذكر السبب الباعث على ذلك ، فيتذكر نعمة الله على إعزاز الإسلام وأهله .

ويؤيد ما همّ به عمر : أنهم اقتصروا عند مراءاة المشركين على الإسراع إذا مروا من جهة الركنين الشاميين ، لأن المشركين كانوا بإزاء تلك الناحية ، فإذا مروا بين الركنين اليمانيين ، مشوا على هيئتهم ، كما هو مبين في حديث ابن عباس [2] .

وقد رأينا الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بزغم التزامهم بطاعة رسول الله ﷺ واتباع سنته ، يخالفون ما أمر به في بعض الأحيان ، أو يفعلون ما نهى عنه ، إذا بان لهم من القرائن : أن الأمر أو النهي لا يحمل جزمًا وإلزامًا ، أو أنه رأي واجتهاد منه عليه الصلاة والسلام في أمر من أمور دنياهم يسعهم أن يناقشوه أو يخالفوه فيه . أو يكون مما صدر عنه بوصف الإمامة والرياسة للأمة والدولة ، فلا يحمل صفة التشريع العام الدائم لكل الأمة إلى يوم القيامة .

وذلك مثل نهيهم عن الوصال في الصوم ، ومع ذلك صاموا وواصلوا ، لظنهم أن النهي كان ـ كما سبق ذلك في كلام العلامة رشيد رضا ـ من باب الرفق بهم .

وقد يخطئون في ظنهم في بعض المواقف ، كإصرار بعضهم على الصيام في السفر، برغم المشقة ، فقال عنهم : أولئك العصاة [3] !

وقد خالفوه ـ عندما أراد أن يصالح غطفان على ثلث ثمار المدينة ، ويرجعوا بجيوشهم عن محاصرتها ـ فأبى السعدانِ ذلك [4] .

---

(١) الحديث في البخاري برقم ١٦٠٥ .
(٢) فتح الباري، ج ٣/ ٤٧٢ .
(٣) رواه مسلم في الصيام برقم (١١١٤) .
(٤) انظر : زاد المعاد ، (ج ٣ / ٢٧٣) ط الرسالة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد جاء الأمر النبوي بصبغ الشيب مخالفة لليهود والنصارى [1] ، ومع ذلك صح أن عددا من أصحابه كانوا لا يصبغون .

وكانوا في حياته يسألونه عما كان بوحي وما لم يكن ، وما كان فيه إلزام ، وما ليس كذلك .

كما في غزوة بدر ، وموقف الحباب بن المنذر ، وسؤاله له : أهذا منزل أنزلكه الله أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ [2]

وكما في موقف بريرة من مغيث ، وقد تقدم .

وقد رأينا حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس ــ رضي الله عنهما ـ يحمل النهي عن أكل لحم الحُمُر الإنسية أو الأهلية الذي صدر عن النبي ﷺ ، يوم خيبر ـ على أنه قصد به مصلحة معينة في ذلك الوقت ، وهو حماية الحمر من الفناء إذا توسعوا في ذبحها وأكلها ، مع حاجتهم إلى ظهرها لركوبها . فليس نهيًا عامًّا ، ولا تشريعًا دائمًا ، وهو ما ترجمه العلماء والمحققون بعد ذلك بقولهم في مثله : إنه صدر عنه بصفة الإمامة والرئاسة ، لا بصفة الفتوى والتبليغ عن الله تعالى .

فقد روى البخاري عن ابن عباس قال : لا أدري : أنهى عنه رسول الله ﷺ من أجل أنه كان حَمولة الناس ، فكره أن تذهب حمولتهم ؟ أو حرّمه في يوم خيبر ؟ لحم الحمر الأهلية [3] .

---

(١) إشارة إلى حديث : « إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم » . رواه الشيخان في كتاب اللباس ، وأبو داود في الترجل ، والنسائي في الزينة ، وابن ماجه في اللباس ، كما في فيض القدير.

(٢) الحديث في سيرة ابن هشام ج٢ ص ٢٧٢ عن ابن إسحق قال : فحدثت عن رجال من بني سلمة أنهم ذكروا أن الحباب . . إلخ . . قال الألباني في تخريج « فقه السيرة » للغزالي : وهذا سند ضعيف ، لجهالة الواسطة بين ابن إسحاق والرجال من بني سلمة (وأيضًا هؤلاء الرجال مجهولون ، ولا يدري أعاصروا الحباب أم لا) ووصل الحاكم هذا الخبر في المستدرك (ج ٣/ ٤٢٧) ، ولكنه لم يصححه ، وأنكره الذهبي ، ولكن وصله ابن حجر في الإصابة (ج١/ ٤٢٧) من طريق ابن إسحق في السيرة ، قال : حدثني يزيد بن رومان عن عروة وغير واحد في قصة بدر فذكر الحباب . .إلخ . وهذا السند إلى عروة صحيح ، إلا أن الحباب مات في خلافة عمر ، وعروة ولد في أواخرها ، فلم يدركه ، فالحديث مرسل . أقول : ولكنه يعضده شهرة القصة بين الصحابة الذين أدركهم عروة ، وهم كثرة ، والذين كانوا يروون أنباء الغزوات لأبنائهم . كما أن للحديث شاهدًا بإسناد ضعيف عند ابن شاهين ، كما في الإصابة أيضًا . وقد نقلت كتب السيرة خبر الحباب ، وتلقته بالقبول .

(٣) فتح الباري، ج ٧/ ٤٨٢ حديث ٤٢٢٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومما يدل على الاحتمال الأول، ما رواه البخاري عن أنس بن مالك : أن رسول اللهﷺ جاءه جاءٍ ، فقال : أُكِلَت الحمر ! فسكت . ثم أتاه الثانية ، فقال : أكلت الحمر ! فسكت . ثم أتاه الثالثة فقال : أفنيت الحمر ! فأمر منادياً ينادي في الناس : إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية . فأكفئت القدور ، وإنها لتفور باللحم [1] .

وروى البخاري بسنده أيضًا إلى عمرو بن دينار أنه قال لجابر بن زيد أبي الشعثاء : يزعمون أن رسول الله ﷺ نهى عن حمر الأهلية ! فقال : قد كان يقول ذاك الحكم بن عمرو الغفاري عندنا بالبصرة ، ولكن أبى ذلك البحر ابن عباس ، وقرأ: ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطعَمُهُ إِلا أَن يَكُونَ مَيتَةً أَو دَمًا مَّسفُوحًا أَو لَحمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجسٌ أَو فِسقًا أُهِلَّ لِغَيرِ اللهِ بِهِ ﴾ . [2] (الأنعام : ١٤٥) .

وإباء ابن عباس هنا ليس رفضًا لوقوع النهي ، فهو يعترف بصدوره من النبي ﷺ، ولكنه لا يعترف بصدوره على جهة التبليغ التي تقتضي العموم والتأبيد .

فهو يراه أمرًا أو قراراً من قرارات الرئاسة والإمارة التي تتعلق بتحقيق مصلحة للناس ، أو درء مفسدة عنهم في وقت معين ، والمصلحة في نظره تتمثل في الحفاظ على حَمولة المسلمين أن تفنى بكثرة الذبح والتوسع في الاستهلاك .

وقد نوافق ابن عباس على ما ذهب إليه في عدم القول بتحريم لحم الحمر الإنسية ، أو لا نوافقه ، ومذاهب الفقهاء مختلفة في ذلك ، وجمهورهم يخالفونه ، ولكن الذي يعنينا من ذلك هنا هو التفات ابن عباس إلى أن بعض النهي ليس عامًّا ولا مؤبدًا ، وإنما هو قرار من قرارات وليّ الأمر ، دفع إليه تحقيق مصلحة في حينه .

وفي كتابي : (فقه الزكاة) ، عرضت في أكثر من موضع لما يصدر عن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بوصف الإمامة والرياسة ، لا بوصف الفتوى والتبليغ أو النبوة ، ووجدت فيه حلاً لكثير من مشكلات الروايات الواردة في بعض أمور الزكاة وأنصبتها ومقاديرها ، وإمكان العفو عن بعض الأموال فيها فلا تؤخذ منها زكاة .

---

(١) فتح الباري، ج ٧/ ٤٦٧ حديث ٤١٩٩ .

(٢) فتح الباري، ٩/ ٦٥٤ حديث ٥٥٢٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأكثر الأبواب التي عرضت فيها لهذه القضية : أبواب الزكاة في الثروة الحيوانية ؛ لأنها كانت أعظم ثروات العرب في عصر النبوة . ومنها أخذت مبادئ وأحكام كثيرة تتعلق بالزكاة .

ولا بأس أن أقتبس بعض ما ذكرته حول موضوعات ثلاثة في (أحاديث الزكاة) ، رأيت أن أفضل ما يحل الإشكال فيها هو اعتبار ما صدر فيها من أمر أو نهي إنما كان بصفة الإمامة والرئاسة ، لا أكثر من ذلك .

الموضوع **الأول** : يتعلق بما روي من خلاف في الكتب المروية في تحديد الزكاة .

والثاني : حول نصاب البقر.

والثالث: حول زكاة الخيل .

أما الأول ، فقد قلت فيه تحت عنوان :

تفسير الخلاف الطفيف بين كتب الزكاة :

ولا بد لنا من وقفة قصيرة هنا أمام الروايات التي جاءت بها الكتب المأثورة في الزكاة عن رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين . فإننا نجد بينها شيئًا من الاختلاف اليسير .

ونعني بالروايات هنا : ما جاء منها بسند مقبول ، (أما الضعيفة المردودة ، فلا نشتغل بها) . وذلك مثل ما جاء في كتاب علي رضي الله عنه : « إذا أخذ المصدق سنًّا فوق سنّ ، رد عشرة دراهم » .

وما جاء في كتاب أبي بكر في فريضة الصدقة التي فرضها الرسول ﷺ : وأنه أمر برد شاتين أو عشرين درهمًا ، كما في حديث أنس .

وكذلك ما جاء في كتاب علي من بعض الخلاف لكتاب أبي بكر وعمر . صحيح أن كتاب علي لم يصح رفعه إلى النبي ﷺ ـ والصحيح : أنه موقوف ـ ولكن كيف استجاز علي رضى الله عنه مخالفة كتاب النبي ﷺ ؟

هل نطعن في كتاب أبي بكر وعمر، وقد ثبت من أوجه صحيحة ؟

أم نقول : إن عليًّا علم أن الكتب الأخرى منسوخة ، وكان عنده الناسخ ، فكيف لم يظهر في عهد الشيخين ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن كل هذه الاحتمالات غير مقبولة .

والذي يظهر لي : أن تعيين النبي ﷺ لبعض هذه التقديرات كان بصفة الإمامة والرياسة التي له ﷺ على الأمة حينئذ ، لا بصفة النبوة . وصفة الإمامة تعتبر ما هو الأنفع للجماعة في الوقت والمكان والحال المعين ، وتأمر به ، وقد تأمر بغيره عند تغير الزمان أو المكان أو الحال أو تغيرها كلها . بخلاف ما يجيء بصفة النبوة ، فهو يأخذ صورة التشريع الملزم لجميع الأمة في جميع الأزمنة والأمكنة .

ويدخل في هذا ـ عندي ـ تحديد الفرق بين كل سن وسن بشاتين أو عشرين درهمًا ، مع أن الفرق في مثل هذه الأحوال لا يثبت على قيمة واحدة جامدة ؛ فإن النسبة بين الإبل والشياه ـ لو ظلت ثابتة ـ فإن تقويم الشاتين بعشرين درهمًا لا يثبت . فقد تغلو قيمة الشياه ، أو تنخفض القوة الشرائية للدرهم ، أو يحدث العكس ، كما هو معلوم ومشاهد الآن . فالنبي ﷺ حين قدر الشاة بعشرين درهما قدرها باعتباره إمامًا ، حسب سعر الوقت ؛ فلا مانع عندنا من تقدير الفرق بغير ذلك ، تبعًا لاختلاف القيم والأسعار .

وبناء على هذا الأساس ، جاء تقدير الإمام عليّ الفرقَ بين السنين بشاتين أو عشرة دراهم ، فهذا يدل على أن الشاة رخصت في عهده وليس في ذلك مخالفة للأمر النبوي .

وهذا التفسير أو التعليل لاختلاف هذه الكتب ـ في بعض التفصيلات بين بعضها وبعض ـ أولى من ردها جميعًا بالطعن في سندها وثبوتها ، كما فعل الإمام يحيى بن معين رحمه الله ، إذ قال : « لم يصح من فرائض الصدقة حديث » يريد بالفرائض : المقادير التي جاءت في أسنان الإبل وأعدادها ، وفي نصاب البقر وغير ذلك ، مما جعل ابن حزم يشتد عليه في الإنكار ، ويرى أن قوله هذا من الكلام المطروح المردود لأنه دعوى بلا برهان . ومما جعل مستشرقًا مثل « شاخت » يستغل هذا التشكيك في أحاديث الزكاة الصحيحة الصريحة التي جاءت بنظام الزكاة ، المنسوب إلى رسول الله ﷺ (١) .

---

(١) فقه الزكاة ، ج ١ / ١٨٩ ، ١٩١ الطبعة السادسة عشرة ـ مؤسسة الرسالة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حول نصاب البقر :

وأما الموضوع الثاني ، وهو ما يتعلق بنصاب البقر : أهو ثلاثون ؟ كما هو المشهور ، أم عشر ؟ أم خمس ؟ كما هو مذهب بعض السلف ، فقد علقت على ذلك ، فقلت :

ويبدو لي أن رسول الله ﷺ ، ترك بعض الأمور قصدًا في أنصبة الزكاة ومقاديرها ، ولم يحددها تحديدًا قاطعًا ، ليوسع بذلك على أولي الأمر من المسلمين ، فيختاروا لأمتهم ما يناسب المكان والزمان والحال .

فقد يجد وليّ الأمر في بعض البلاد وبعض الأزمنة أن البقر أعلى قيمة من الإبل ، وأعظم نفعًا ، وأكثر دَرًّا ونسلاً ، كما في بعض أصناف البقر العالمية المعروفة في عصرنا ، فيستطيع أن يحدد النصاب هنا بخمس ، ويوجب فيها شاة ، وفي العشر شاتين ، وفي العشرين أربع شياه ، ثم بعد ذلك يؤخذ بها في حديث معاذ . ويترجح هذا الرأي إذا كان مُلاّك هذا النوع من البقر ، من كبار الأغنياء والموسرين . كما يمكن الأخذ بقول شهر بن حوشب في اعتبار النصاب عشرًا .

وأما إذا كان البقر في بعض البلاد أدنى قيمة وأقل نفعًا ، بحيث لا يعتبر ملك خمس أو عشر منه غِنىً يعتد به . فالمعقول أن يكون النصاب هنا ثلاثين كما هو الرأي المشهور . وهذا يفسر قول الإمام الزهري في تقدير النصاب بالثلاثين : إن ذلك كان تخفيفًا لأهل اليمن .

ولو صح ما قاله الزهري ، لم يكن ذلك نسخًا بالمعنى الاصطلاحي المتأخر ، فإنما فعل النبي ﷺ ذلك بوصفه إمامًا للمسلمين ، يدير أحكامه عليهم وفقًا للمصلحة الزمنية التي قد تتغير ، فيتغير تبعًا لها حكمه . وما فعله الرسول ﷺ ، أو قاله بوصف الإمامة والرياسة ، غير ما يفعله أو يقوله بوصف النبوة (أو التبليغ عن الله) وبينهما بون كبير [1] .

حول زكاة الخيل :

ثم عدت للموضوع مرة أخرى في آخر بحث زكاة الخيل ، وما فيها من خلاف

---

(١) فقه الزكاة ، ج ١/ ٢٠٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن كل هذه الاحتمالات غير مقبولة .

والذي يظهر لي : أن تعيين النبي ﷺ لبعض هذه التقديرات كان بصفة الإمامة والرياسة التي له ﷺ على الأمة حينئذ ، لا بصفة النبوة . وصفة الإمامة تعتبر ما هو الأنفع للجماعة في الوقت والمكان والحال المعين ، وتأمر به ، وقد تأمر بغيره عند تغير الزمان أو المكان أو الحال أو تغيرها كلها . بخلاف ما يجيء بصفة النبوة ، فهو يأخذ صورة التشريع الملزم لجميع الأمة في جميع الأزمنة والأمكنة .

ويدخل في هذا ـ عندي ـ تحديد الفرق بين كل سن وسن بشاتين أو عشرين درهمًا ، مع أن الفرق في مثل هذه الأحوال لا يثبت على قيمة واحدة جامدة ؛ فإن النسبة بين الإبل والشياه ـ لو ظلت ثابتة ـ فإن تقويم الشاتين بعشرين درهمًا لا يثبت . فقد تغلو قيمة الشياه ، أو تنخفض القوة الشرائية للدرهم ، أو يحدث العكس ، كما هو معلوم ومشاهد الآن . فالنبي ﷺ حين قدر الشاة بعشرين درهما قدرها باعتباره إمامًا ، حسب سعر الوقت ؛ فلا مانع عندنا من تقدير الفرق بغير ذلك ، تبعًا لاختلاف القيم والأسعار .

وبناء على هذا الأساس ، جاء تقدير الإمام عليّ الفرقَ بين السنين بشاتين أو عشرة دراهم ، فهذا يدل على أن الشاة رخصت في عهده وليس في ذلك مخالفة للأمر النبوي .

وهذا التفسير أو التعليل لاختلاف هذه الكتب ـ في بعض التفصيلات بين بعضها وبعض ـ أولى من ردها جميعًا بالطعن في سندها وثبوتها ، كما فعل الإمام يحيى بن معين رحمه الله ، إذ قال : « لم يصح من فرائض الصدقة حديث » يريد بالفرائض : المقادير التي جاءت في أسنان الإبل وأعدادها ، وفي نصاب البقر وغير ذلك ، مما جعل ابن حزم يشتد عليه في الإنكار ، ويرى أن قوله هذا من الكلام المطروح المردود لأنه دعوى بلا برهان . ومما جعل مستشرقًا مثل « شاخت » يستغل هذا التشكيك في أحاديث الزكاة الصحيحة الصريحة التي جاءت بنظام الزكاة ، المنسوب إلى رسول الله ﷺ (١) .

---

(١) فقه الزكاة ، ج ١ / ١٨٩ ، ١٩١ الطبعة السادسة عشرة ـ مؤسسة الرسالة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هو التفسير المقبول لأخذ عمر الزكاة منهـا ، إن صح أن النبي ﷺ عفا عنها . والله أعلم . اهـ[1] .

الاستغناء عن كثرة القول بالنسخ :

وهذا النظـر إلى السنة في ضوء ما شرحـه المحققون ، يعفينا من اللجـوء إلى القول بالنسخ الـذي يذهب إليه كثير مـن العلماء ، فرارًا من التعارض بين الأدلـة بعضها وبعض .

ولكن النسخ لا يثبت بالاحتمال ، ولا بد من معرفة المتأخر والمتقدم من النصّين ، حتى يحكم لأحدهما بنسخ الأخر .

والحق أن كثيرًا مما قيل فيه بالنسخ : ليس بمنسوخ حقيقة ، بل كلا النصّين كان يمثل سياسـة شرعية نبوية في مـوقف معين ولأسباب وملابسـات معينة ، فلمّا تغير السبب الموجب : تغير الحكم .

وهذا ما قالـه بعض الأئمة في النهي عن الادخار في لحوم الأضاحـى ثم إباحتها بعد ذلك : إنـه لم يكن نسخًا . كما بينت ذلك في كتابي : (شريعـة الإسلام) ، فقد منع النبي ﷺ من ادِّخار لحوم الأضاحي ، بعـد ثلاثة أيام من يوم الأضحَى ، حين كان بالنـاس جَهْد ومشقة وحاجة إلى اللحـم ، وقد وفد عليهم وافـدون محتاجون ، فأصدر النبي ﷺ أمره بمنع الادِّخار بوصفه إمام الجماعة ورئيس الدولة .

روى البخـاري عن سلمـة بن الأكـوع ، قـال : قال النبـي ﷺ : « من ضحـى منكم ، فلا يصبحـن بعد ثلاثة أيـام ويبقى في بيته منه شيء » فلما كـان العام المقبل قالوا : يا رسول الله نفعل كما فعلنا في العام الماضي ؟ قال : « كلوا وأطعموا وادّخروا ، فإن في ذلك العام كان بالناس جَهْد ــ أي مشقة ومجاعة ـ فأردت أن تعينوا فيها » وفي بعض الأحاديـث : « إنما نهيتكم من أجل الـدافّة التي دفّت » أى القـوم الذين قدموا المدينـة من خارجها . وبهذا الحديـث وما قبله : اتضحت علـة النهي ، وأنه كان لعـلاج ظرف طـارئ فلما زالت العلـة : زال الحكم ، وجـاء الحديث مصرحًـا بالإباحة : «كنت نهيتكم عن ادِّخار لحوم الأضاحي ، فكلوا وأطعموا وادخروا » .

---

(١) فقه الزكاة ، ج ١ / ٢٣٠ ، ٢٣٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد ظن كثير من الفقهاء أن هذه الإباحة نسخ للنهي المتقدم ، وليس كذلك . فالتحقيق أنه ليس من باب النسخ ، كما وضّح ذلك الإمام القرطبي في تفسيره ، قال : « بل هو حكم ارتفع لارتفاع علته ، لا لأنه منسوخ . وفَرْقٌ بين رفع الحكم بالنسخ ورفعه لارتفاع علته . فالمرفوع بالنسخ : لا يحكم به أبدًا ، والمرفوع لارتفاع علته : يعود بعود العلة ، فلو قدم على أهل بلدة ناس محتاجون في زمان الأضحى ولم يكن عند أهل ذلك البلد سعة ، يسدون بها فاقتهم إلا الضحايا : لتعيّن عليهم ألا يدخروها فوق ثلاث ، كما فعل النبي ﷺ »[1] .

وكذلك نبه الإمام الشافعي في الرسالة في آخر « باب العلل » في الحديث على ربط النهي عن الادِّخار بالدافة[2] وإن لم يجزم به .

ومما يؤيد ذلك أن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ صلى بالناس في يوم عيد ، ثم خطبهم فنهاهم عن الادِّخار فوق ثلاث ، مذكراً إياهم بنهي النبي ﷺ ، وقد حار القائلون بالنسخ في صنيع علي ، فقال بعضهم : لعله لم يبلغه النسخ . ولكن الإمام أحمد روى ما يدل على أنه بلغته الإباحة والرخصة ، ولهذا كان الراجح أنه قال ذلك في وقت كان بالناس حاجة . وبهذا جزم ابن حزم كما في فتح الباري .

قال الحافظ : والتقييد بالثلاث واقعة حال ، وإلا فلو لم تسد الخلة إلا بتفرقة الجميع ، لزم ـ على هذا التقدير ـ : عدم الإمساك ولو لليلة واحدة[3] .

وحكى الرافعي عن بعض الشافعية : أن التحريم كان لعلة ، فلما زالت : زال الحكم ، ولكن لا يلزم عود الحكم عند عود العلة ، وقد استبعدوا هذا القول . وإن أيده الحافظ في الفتح[4].

وكان يريح هؤلاء جميعًا ، لو أنهم نظروا إلى النهي والمنع النبوي في ذلك على أنه من تصرفات الإمام المسئول عن رعيته ، ومن مقتضيات السياسة الشرعية ، التي ترتبط بمناسباتها . فهو ليس أكثر من تقييد المباح ، وإيجاب المعونة لظرف اقتضاه . وليس في هذا بحمد الله إشكال[5] .

---

(١) تفسير القرطبي ، ج ١٢/ ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) الرسالة للإمام الشافعي بتحقيق أحمد محمد شاكر ، ص ٢٣٩ .

(٣) انظر : فتح الباري ، ج ١٢ ص ١٢٠ ، ١٢٥ . ط الحلبي .

(٤) المصدر السابق .

(٥) انظر كتابنا : شريعة الإسلام . ص ١٤٩ ، ط ١٥٠ . المكتب الإسلامي ببيروت ودار الصحوة بالقاهرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد وجدت هنا كلمة مشرقة للعلامة أحمد شاكر ، عقب فيها على ما ذكره الإمام الشافعي في (الرسالة) وفي (اختلاف الحديث)، حول إباحة ادِّخار لحوم الأضاحي بعد النهي عنه ، قال :

وهكذا ، تردّد الشافعي في قوله في هذا كما ترى، فمرةً يذهبُ إلى النسخ ، ومرةً يذهب إلى أن النهيَ اختيارٌ لا فرضٌ ، ومرةً يذهب إلى أنّ النهيَ لمعنىً ، فإذا وُجد ثبت النهيُ . والذى أراه راجحًا عندي : أن النهيَ عن الادخار بعد ثلاث إنما كان من النبي ﷺ لمعنى دَفٌّ الدَّافة ، وأنه تَصَرُّفٌ منه ـ ﷺ ـ على سبيل تصرُّفِ الإمام والحاكم ، فيما يَنظر فيه لمصلحة الناس ، وليس على سبيل التشريع في الأمر العامّ ، بل يؤخذ منه أن للحاكم أن يأمرَ وينهي في مثل هذا ، ويكون أمرُه واجبَ الطاعة ، لا يَسَعُ أحداً مخالفتهُ ، وآيةُ ذلك أنّ النبي ﷺ حين أخبروه عمّا نابَهم من المشقة في هذا سألهم : « وما ذاك » ؟ فلما أخبروه عن نهيه أبانَ لهم عن علته وسببه ، فلو كان هذا النهي تشريعاً لذَكَرَ لهم أنه كان ثم نُسِخَ ، أمّا وقد أبان لهم عن العلة في النهي ، فإنه قَصَدَ إلى تعليمهم أنّ مثلَ هذا يدورُ مع المصلحة التي يراها الإمامُ ، وأن طاعتهَ فيه واجبةٌ . ومن هذا نعلمُ أن الأمرَ فيه على الفرض لا على الاختيار ، وأنه فرضٌ محدَّدٌ بوقتٍ أو بمعنىً خاصٍّ ، لا يُتَجاوَزُ به ما يراه الإمامُ من المصلحة .

وهذا معنى دقيقٌ بديعٌ ، يَحتاج إلى تأملٍ ، وبُعْدِ نظر ، وسَعَة اطلاع على الكتاب والسنة ومعانيهما . وتطبيقهُ في كثيرٍ من المسائل عَسيرٌ ، إلا على مَن هَدَى الله .[1] اهـ.

اجتهاده عليه الصلاة والسلام :

وقد اختلف علماء المسلمين من الأصوليين والمتكلمين حول اجتهاده ﷺ ، فذهب بعضهم إلى نفي اجتهاده في الشرعيات ، لأنه قادر على التلقي من الوحي ، فلا يجوز أن يستغني بالأدنى عن الأعلى ، أو بالظن عن اليقين . كما استدلوا بقوله تعالى في سورة النجم : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (الآيتان : ٣ , ٤) . أخبر أنه لا ينطق إلا عن وحي ، والحكم الصادر عن اجتهاده لا يكون وحيًا فيكون داخلاً تحت النفي .

---

(١) الرسالة بتحقيق شاكر ـ حاشية ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ورد الآخرون بالقرآن ، والسنة ، ودليل المعقول ، وقالوا : إن الآية التي استدلوا بها ليست حجة لهم ، لأنها تتحدث عن القرآن ، والمعني كما جاء عن قتادة : أنّه لا يصدر في القرآن عن هواه ، بل هو وحي من الله إليه ، كما ذكر ذلك القرطبي في تفسيره [1] .

وقال الشوكاني في الرد على من احتج بقوله تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى . . ﴾ إلخ : المراد به القرآن ، لأنهم قالوا : ﴿ إنما يعلمه بشر . . ﴾ [2] ولو سُلّم ، لم يدل على نفي اجتهاده ؛ لأنه إذا كان ـ ﷺ ـ متعبدًا بالاجتهاد وبالوحي ، لم يكن ناطقًا عن الهوى بل عن الوحي [3] .

وقد رد هؤلاء على نفاة الاجتهاد بما ثبت من وقائع اجتهاده ، عليه الصلاة والسلام كقوله : « أرأيت لو كان على أبيك دين ؟ » ، وقوله لعمر في قبلة الصائم : « أرأيت لو تمضمضت ؟ » ، وقوله للعباس : « إلا الإذخر » ، وقوله : « لو سمعت هذا الشعر قبل أن أقتله ما قتلته » .

ومن هنا ذهب الأكثر إلى جواز اجتهاده ﷺ ، ووقوعه بالفعل في قضايا متعددة ، وأنه قد يجتهد فيخطئ فينزل الوحي ليصحح له الخطأ ، ويبين له الصواب ، وبهذا لا يُقَرّ على خطأ أبدًا ، وهذه مزيته على غيره من المجتهدين .

ولهذا يسمي علماء الأصول ما جاء من الأحكام عن طريق هذا الاجتهاد (الوحي الباطن) فهو شبيه بالوحي وإن لم يكن وحيًا .

ولكن هذا الخلاف بين الفريقين يرتفع إذا كان الاجتهاد في أمور الدنيا المحض . ذكر في (كشف الأسرار) بعد ذكر الخلاف في اجتهاده ﷺ : أن كلهم قد اتفقوا على أنه يجوز له العمل بالرأي في الحروب وأمور الدنيا . كما اتفقوا أنه لما جاز له الرأي والاجتهاد في أمور الحرب ونحوها ، جازت مخالفته ، حتى خالفه السعدان في إعطاء ثلث ثمار المدينة لغطفان في غزوة الخندق ، وخالفه الحباب بن المنذر في اختيار موقع النزول يوم بدر [4] .

---

(١) تفسير القرطبي ، ج ١٧ ص ٨٤ ، ط دار الكتب المصرية .

(٢) النحل : ١٠٣ .

(٣) إرشاد الفحول ص ٢٣٨ ، ط السعادة سنة ١٣٢٧ هـ ، مصر .

(٤) انظر : (كشف الأسرار) ، لعبد العزيز البخاري على أصول الإمام البزدوي ، ج ٢ ص ٦٢٦ ، ط استانبول سنة ١٣٠٧ هـ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكذلك خالفته (بَرِيرة) بعد عتقها ، حين شفع عندها أن ترجع إلى (مغيث)، زوجها في حال الرق ، وكان شديد التعلق بها ، وكانت هي تبغضه ، ولما كلمها النبي ﷺ في الرجوع إليه ، وأفهمها أنه شافع ، قالت : لا حاجة لي فيه . وهذا ثابت في الصحيح .

ما جاء في السنة من الأمر والنهي على سبيل الإرشاد :

على أن من المهم هنا أن نعلم أن بعض ما ورد عنه ﷺ ، ليس من شئون الدين التي يطلب فعلها أو الكف عنها ، ابتغاء ثواب الله تعالى وطلبًا لمرضاته ؛ حتى ما كان منها بصيغة الأمر أو النهي .

فعلماء الأصول يسمونه : أمر إرشاد أو نهي إرشاد . ومثلوا الإرشاد في الأمر بقوله تعالى في آية المداينة : ﴿ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ (البقرة : ٢٨٢) . وللإرشاد في النهي بقوله تعالى : ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ (المائدة : ١٠١) . وكان الأجدر أن يمثَّل ببعض الأحاديث ؛ فالإرشاد فيها أبين وأظهر . وقد ينازَع في أوامر القرآن أنها للندب أو الإرشاد ، كما قد ينازع في نواهي القرآن أنها للكراهة أو الإرشاد أيضًا .

وفرقوا بين ما كان للندب وما كان للإرشاد ؛ فقالوا : الفرق بين الإرشاد والندب : أن الندب لثواب الآخرة ، والإرشاد لمنافع الدنيا ، ولا ينتقص ثواب الآخرة بترك الإشهاد في المداينات ، ولا يزيد بفعله [1].

وهذا يفسر لنا كيف ترك الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بعض ما أمر به النبي ﷺ، لما لم يروا أنه للإيجاب ولا للاستحباب ، وإنما هو للإرشاد ، إلى مصالح دنيوية يسعهم أن يجتهدوا فيها ، وأن يروا فيها رأيًا آخر .

مثال ذلك : أمره ﷺ بصبغ الشيب ، بمثل قوله : « إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم » [2] .

---

(١) كشف الأسرار، ج ١ ص ١٠٧ وذكره الشوكاني في (إرشاد الفحول) ص ٩١، نقلاً عن الرازي في المحصول وانظر: المحصول بتحقيق د. طه جابر العلواني ـ القسم الثاني ج ١ ص ٥٨، مطابع الفرزدق الرياض . والإحكام في أصول الأحكام للآمدي ج ٢ ص ٢٠٧ ط دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) رواه البخاري في كتاب اللباس عن أبي هريرة برقم ٥٨٩٩ . ط السلفية مع الفتح، ج ١٠ / ٣٥٤، وأخرجه مسلم أيضًا . وانظر : اللؤلؤ والمرجان (١٣٦٢).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فوجد من الصحابة من لم يصبغ ، كما ذكر ذلك الحافظ في الفتح . وممن ترك الصبغ علي بن أبي طالب ، وأبي بن كعب ، وسلمة بن الأكوع ، وأنس بن مالك ، وجماعة [1] .

وذكر الحافظ اختلاف السلف في الخضب (الصبغ) وتركه ، ثم قال : ولكن الخضاب مطلقًا أولى ، لأنه فيه امتثال الأمر بمخالفة أهل الكتاب ، وفيه صيانة الشعر عن تعلق الغبار وغيره به ، إلا إن كان من عادة أهل البلد ترك الصبغ ، وأن الذي ينفرد بدونهم بذلك يصير في مقام الشهرة ، فالترك في حقه أولى [2] .

وقد أنصف الحافظ ـ رحمه الله ـ في رد مثل هذا الأمر إلى عادات البلدان ، والتسامح فيه ، على خلاف ما يفعل بعض المتشددين الذين ينسبون أنفسهم إلى اتباع السنة في عصرنا .

ومن ذلك ، حديث : « لا تُسمِّ غلامك رباحًا ولا يسارًا ، ولا أفلح ولا نافعًا [3] » ، ومع ذلك سمى المسلمون منذ عهد الصحابة بهذه الأسماء ، ولو كان في ذلك كراهة دينية ما سمَّوْا بها .

الأحاديث المتعلقة بالوصفات الطبية :

وفي رأيي ، أن جل الأحاديث المتعلقة بـ (الوصفات الطبية) وما في معناها ، مثل الترغيب في نوع معين من الكحل ، أو في لون معين من المأكولات ، أو الملبوسات ونحو ذلك ، هي من هذا الباب ـ باب الإرشاد ـ الذي لا ينقص الثواب بتركه ولا يزيد بفعله .

فإذا وصف الرسول ﷺ للمصاب بِعرق النَّسا : أَلْيَةَ شاة عربية [4] إلخ . . ما جاء في الحديث ، فهذا ليس من أمور الدين التي يثاب فاعلها ، أو يلام تاركها ، بل هو إرشاد لأمر دنيوي نابع من تجربة البيئة العربية ، ويسع المسلم اليوم أن يدع ذلك ، ويذهب إلى الطبيب المختص ، ويلتمس عنده العلاج ، ويأخذ برأيه ، ولا يكون مخالفًا للسنة .

---

(١) الفتح : ج ١٠ / ٣٥٥ . (٢) المصدر السابق .

(٣) رواه مسلم عن سمرة برقم (٢١٣٦) .

(٤) الحديث رواه ابن ماجه في الطب برقم (٣٤٦٣) وصححه البوصيري ، وسيأتي في كلام ابن القيم بعد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومثل ذلك قوله ﷺ : « عليكم بالإثمد عند النوم ، فإنه يجلو البصر وينبت الشعر »[1] والإثمد : نوع من المعدن يكتحل به ، وكان معروفا عند العرب .

وقوله : « عليكم بالإثمد ، فإنه منبتة للشعر ، ومذهبة للقذى ، ومصفاة للبصر[2] » وغير ذلك من الأحاديث التي جاءت تدعو إلى الاكتحال بالإثمد ، فكلها من وادي الإرشاد ، فلا حرج على المسلم إذا لم يستعمل الإثمد في حياته أبدًا ، أو لم يسمع به ، ولا جناح عليه إذا اتبع في ذلك تعليمات (طبيب العيون) . ولو قال له الطبيب الثقة : إن الإثمد لا يلائمك أو لا ينفعك لكان عليه أن يجتنبه ، ولا يكون بذلك مخالفًا للسَّنة ، بل متبعا لهدي الإسلام في وجوب الرجوع إلى أهل الذكر والخبرة في كل شأن ، ومتبعًا كذلك لقول رسوله الكريم : « لا ضرر ولا ضرار »[3] . ولم يبعث عليه الصلاة والسلام ليقوم بطب الأجسام ، فذلك له أهله ، وإنما بعث بطب القلوب والعقول والأنفس .

ولو نظرنا إلى حديث (غمس الذباب) الذي دارت حوله معارك الجدل في هذا العصر هذه النظرة ، لاسترحنا وأرحنا .

فالحديث يمثل إرشادًا في أمر دنيوي ، في بيئة معينة قليلة الموارد ، محدودة المصادر من المواد الغذائية ، فلا ينبغى المسارعة بإلقاء كل طعام وقعت فيه ذبابة ، وخصوصًا في مجتمع يبني أبناءه على التقشف والخشونة والإعداد لحياة الجهاد .

أما ما تضمن الحديث من إخبار بأن (في أحد جناحيها داء ، وفى الآخر شفاء) فهو شيء فوق خبرة البيئة ، وتجربة العرب . وينبغي ألا نقابله بالرد أو التكذيب لمجرد الاستبعاد .

ومهما يكن اعتزازنا بما سماه العلماء (الطب النبوي) فمن المتفق عليه : أن النبي ﷺ، لم يدّع العلم بالطب ، ولا بعث لذلك .

---

(١) رواه ابن ماجه عن جابر وابن عمر ، والحاكم عن ابن عمر ، وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس دون ذكر (عند النوم) وهو في صحيح الجامع الصغير برقمى (٤٠٥٤ و ٤٠٥٦) .

(٢) رواه الطبراني ، وأبو نعيم في الحلية عن علي ، وحسنه صحيح الجامع برقم (٤٠٥٥) .

(٣) رواه أحمد وابن ماجه عن ابن عباس ، وابن ماجه عن عبادة ، وهو صحيح بمجموع طرقه . وذكره في صحيح الجامع (٧٥١٧) ومعناه مقطوع به ، أخذًا من أحكام ونصوص جزئية غير محصورة جاءت في القرآن والسنة . وبهذا أصبح منطوقه قاعدة شرعية قطعية باتفاق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولم يقل أحد من العلماء المعتبرين ـ فيما أعلم ـ بأن ما جاء من وصفات علاجية معينة ـ مما صحت به الأحاديث ـ مأخوذ على عمومه وإطلاقه . بل هو ـ وإن ورد بلفظ عام في بعض الأحيان ـ مخصوص بمكانه وزمانه وحاله .

تأويل ابن القيم لبعض أحاديث الطب النبوي :

وهذا ما نجد المحقق ابن القيم ـ برغم اهتمامه بالطب النبوي، وبيان ما فيه من منافع وأسرار حسب علمه وعلم عصره ـ يلفت النظر إليه في كتابه : (زاد المعاد في هَدي خير العباد)، وينبه على أن كثيرًا من هذه الأوامر والتوجيهات النبوية في هذا الشأن ليست عامة لكل الناس ، في كل البيئات وفي كل الأحوال ، بل هي مخصوصة بمثل البيئة التي قيلت فيها .

خذ مثلاً لذلك حديثه عن (هديه ﷺ في علاج عرق النَّسا). قال : « روى ابن ماجه في سننه من حديث محمد بن سيرين ، عن أنس بن مالك ، قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : دَوَاءُ عِرق النَّسا أَلْيَةُ شاةٍ أعرابيَّةٍ تُذَابُ ، ثم تجزأ ثلاثة أجزاء ، ثم يُشرَب على الريق كلَّ يومٍ جزء »[1] .

قال ابن القيم :

عِرق النَّسا : وجع يبتدئ من مفصل الورك ، وينزل من خلف الفخذ ، وربما على الكعب . وكلما طالت مدته زاد نزوله ، وتُهزل معه الرجل والفخذ ، وهذا الحديث فيه معنًى لغوي ومعنًى طبي ، فأما المعنى اللغوي ، فدليل على جواز تسمية هذا المرض بعِرق النَّسا ، خلافًا لمن منع هذه التسمية ، وقال : النَّسا هو العِرق نفسه ، فيكون من باب إضافة الشيء إلى نفسه ، وهو ممتنع .

وجواب هذا القائل من وجهين . **أحدهما** : أن العرق أعمّ من النَّسا ، فهو من باب إضافة العام إلى الخاص نحو : كل الدراهم أو بعضها .

الثاني : أن النَّسا : هو المرض الحالّ بالعِرق ، والإضافة فيه من باب إضافة الشيء إلى محله وموضعه . قيل : وسُمي بذلك لأن آله ينسي ما سواه ، وهذا العرق

---

(١) أخرجه ابن ماجة (٣٤٦٣) في الطب : باب دواء عِرق النَّسا ، ورجاله ثقات ، وقال البوصيري في (الزوائد) ٢١٦/ ١ : إسناده صحيح .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ممتد من مفصل الورك ، وينتهي إلى آخر القدم وراء الكعب من الجانب الوحشي فيما بين عظم الساق والوتر .

وأما المعنى الطبي : فقد تقدم أن كلام رسول الله ﷺ نوعان :

أحدهما : عام بحسب الأزمان ، والأماكن ، والأشخاص ، والأحوال .

والثاني : خاص بحسب هذه الأمور أو بعضها ، وهذا من هذا القسم ، فإن هذا خطاب للعرب ، وأهل الحجاز ، ومن جاورهم ، ولا سيما أعراب البوادي ، فإن هذا العلاج من أنفع العلاج لهم . فإن هذا المرض يحدث من يُبس وقد يحدث من مادة غليظة لَزِجَة ، فعلاجها بالإسهال . والأَلْيَةُ فيها الخاصيتان : الإنضاج ، والتليين ، ففيها الإنضاج ، والإخراج . وهذا المرض يحتاج عِلاجُه إلى هذين الأمرين ، وفي تعيين الشاة الأعرابية لقلة فضولها وصغر مقدارها ، ولطف جوهرها ، وخاصية مرعاها ، لأنها ترعى أعشاب البر الحارة ، كالشيح ، والقَيصوم ، ونحوهما ، وهذه النباتات إذا تغذى بها الحيوان ، صار في لحمه من طبعها بعد أن يلطفها تغذّيهِ بها ، ويكسبها مزاجًا ألطف منها ، ولا سيما الألية ، وظهور فعل هذه النباتات في اللبن أقوى منه في اللحم ، ولكن الخاصية التي في الألية من الإنضاج والتليين : لا توجد في اللبن ، وهذا ـ كما تقدم ـ أن أدوية غالب الأمم والبوادي هي الأدوية المفردة ، وعليه أطباء الهند .

وأما الروم واليونان فيعتنون بالمركّبة ، وهم متفقون كلهم على أن مهارة الطبيب أن يداوي بالغذاء ، فإن عجز فبالمفرد ، فإن عجز فبما كان أقل تركيبًا .

وقد تقدم أن غالب عادات العرب وأهل البوادي الأمراض البسيطة ، فالأدوية البسيطة تناسبها ، وهذا لبساطة أغذيتهم في الغالب ، وأما الأمراض المركبة فغالبًا ما تحدث عن تركيب الأغذية وتنوعها واختلافها ، فاختيرت لها الأدوية المركبة ، والله تعالى أعلم [1] . اهـ .

وينهج ابن القيم هذا المنهج عند كلامه عن (تمر المدينة) وما جاء في الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص قال : قال ﷺ : « من تصبّح بسبع تمرات من تمر العالية لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر » .

---

(١) زاد المعاد ج ٤ ـ ص ٧١ ـ ٧٣ ط . الرسالة ـ بيروت .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي لفظ : « من أكل سبع تمرات مما بين لابتيها [1] حين يصبح، لم يضره سم حتى يمسي [2] » . وبعد أن يتحدث عن التمر وفائدته ـ بحسب علمه وعلم عصره ـ وخصوصًا لأهل المدينة ، إذ هو قوتهم ومادتهم ، يقول :

«وهذا الحديث من الخطاب الذي أريد به الخاص ، كأهل المدينة ومن جاورهم ، ولا ريب أن للأمكنة اختصاصًا بنفع كثير من الأدوية في ذلك المكان دون غيره ، فيكون الدواء الذي قد ينبت في هذا المكان نافعًا من الداء . ولا يوجد فيه ذلك النفع إذا نبت في مكان غيره لتأثير نفس التربة أو الهواء أو هما جميعًا ، فإن للأرض خواص وطبائع يقارب اختلافها اختلاف طبائع الإنسان . وكثير من النبات يكون في بعض البلاد غذاءً مأكولاً ، وفي بعضها سمًّا قاتلاً ، ورب أدوية لقوم أغذية لآخرين ، وأدوية لقوم من أمراض هي أدوية لآخرين من أمراض سواها ، وأدوية لأهل بلد لا تناسب غيرهم ولا تنفعهم .

ويجوز نفع التمر المذكور في بعض السموم ، فيكون الحديث من العام المخصوص ، ويجوز نفعه ـ لخاصية تلك البلدة ، وتلك التربة الخاصة ـ من كل سم . ولكنْ هاهنا أمر لا بد من بيانه ، وهو أن من شرط انتفاع العليل بالدواء قبوله ، واعتقاد النفع به ، فتقبله الطبيعة ، فتستعين به على دفع العلة ، حتى إن كثيرًا من المعالجات ينفع بالاعتقاد ، وحسن القبول ، وكمال التلقي . وقد شاهد الناس من ذلك عجائب ، وهذا لأن الطبيعة يشتد قبولها له ، وتفرح النفس به ، فتنتعش القوة ، ويقوى سلطان الطبيعة ، وينبعث الحار الغريزي ، فيساعد على دفع المؤذي ، وبالعكس يكون تأثير كثير من الأدوية نافعًا لتلك العلة ، فيقطع عمله سوء اعتقاد العليل فيه ، وعدم أخذ الطبيعة له بالقبول ، فلا يجدي عليها شيئًا [3] اهـ .

وابن القيم هنا يلفت النظر إلى الجانب النفسي ، وأهميته في العلاج ، وتعجيل الشفاء ، وأثر ما يعرف الآن باسم (الإيحاء) وهو جانب يقره الطب الحديث بكل تأكيد .

---

(١) لابتاها : ما يحيط بجانبيها من الحجارة السود والبركانية ، تثنية لابة ، بزنة غابة .

(٢) أخرجه البخاري ٩/ ٤٩٣ في الأطعمة : باب العجوة . ومسلم (٢٠٤٧) في الأشربة باب فضل تمر المدينة . وانظر : اللؤلؤ والمرجان (١٣٢٧) .

(٣) زاد المعاد ج، ٤/ ٩٨ ـ ١٠١ ط. الرسالة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والذي ينبغي الانتباه إليه من كلام ابن القيم ، والذي كرره في (زاد المعاد) في أكثر من مناسبة ، هو أن كثيرًا من الأحاديث الواردة في الطب ونحوه لا تؤخذ على عمومها وإطلاقها . فكثيرًا ما تكون مخصوصة بظرف معين ، أو مكان معين ، أو حال معين ، لا يحسن تعديته إلى غيره ؛ بل ربما صدرت عنه ﷺ بمحض رأيه وتجربته البشرية ، كما ذكر ذلك في (مفتاح دار السعادة) وسننقله عنه فيما يأتي .

وانظر إلى هذا الحديث : « عليكم بألبان البقر ، فإنها دواء ، وأسمانها فإنها شفاء ، وإياكم ولحومها ، فإن لحومها داء » رواه الحاكم وابن السني وأبو نعيم عن ابن مسعود وصححه الحاكم ووافقه الذهبى ، وذكره الألبانى في صحيح الجامع الصغير .

ونحوه عن صهيب : « عليكم بألبان البقر ، فإنها شفاء ، وسمنها دواء ، ولحمها داء » رواه ابن السُّنّي وأبو نعيم وصححه الألباني أيضًا .

ومثله : « ألبان البقر شفاء ، وسمنها دواء ، ولحومها داء » رواه الطبراني في الكبير عن مليكة بنت عمرو ، وهو في صحيح الجامع كذلك [1] .

ماذا نقول في هذه الأحاديث المصححة ؟

يمكننا أن نرفض هذا التصحيح ، لمناقضته للقرآن ، وللثابت من السنَّة ، وللواقع [2]، وبخاصة أن الحاكم معروف بتساهله في التصحيح . والألباني يصحح بكثرة الطرق ، دون نظر إلى المتن ، وإن خالف العقول ، وباين النقول ، وناقض الأصول .

---

(١) انظر : الأحاديث : (٤٠٦٠ ، ٤٠٦١ ، ١٢٣٣) من صحيح الجامع الصغير وزيادته للشيخ محمد ناصر الألباني ط. المكتب الإسلامى ، بيروت ، وانظر : فيض القدير ، شرح الجامع الصغير (ج ٤/ ٨٤٣) .

(٢) أما مناقضة هذه الأحاديث للقرآن ، فقد قال تعالى : ﴿ أحلت لكم بهيمة الأنعام﴾ المائدة : ١ وكذا كثير من الآيات التى امتن الله بها على عبادة بخلق الأنعام لهم . وقوله تعالى : ﴿ ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين . . ﴾ الآية الأنعام ١٤٤ : وأما مناقضتها للسنة الثابتة فمن المعلوم : أن الرسول الكريم ضحى بالبقر، وشرع البقر في الأضحية والهدى، وجعل البقرة عن سبعة كالبدنة . وأما مناقضتها للواقع فلأن الناس يأكلون لحوم البقر ـ مسلمين وغير مسلمين ـ ولايجدون من ذلك داء ، إلا ماعرف أخيرا من مرض (جنون البقر) ، لخروجهم فيه عن فطرة الله وإطعامهم البقر آكل العشب ـ ما لايليق به .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أن الأسانيد نفسها لا تخلو من كلام . .

ولكن إذا قبلنا تصحيح الحاكم والألباني ، فما تفسيرنا لذلك ؟

فهل مثل هذا الحديث ديني تشريعي ، يحمل خبرًا لا ينطق عن الهوى ، عن لحوم البقر ، وأنها داء ؟ وهل هذا الخبر مطابق للواقع ؟

لو كان هذا الحديث من الدين لوجب أن يكون خبره مطابقًا للواقع من كل الوجوه ، ومثل هذا الخبر ، يلزمه تشريع وتكليف بما يترتب عليه . فإذا كانت لحوم البقر (داء) فإن تناولها يحرم ـ أو على الأقل : يكره تحريمًا ـ اتقاء للضرر ؛ إذ لا ضرر ولا ضرار ، وقد نهى عنه في حديث ابن مسعود المذكور آنفا « وإياكم ولحومها » .

ولكن الواقع أن لحوم البقر مأكولة في العالم كله ، بما فيه العالم الإسلامي ، وقد أكلها المسلمون طوال القرون الماضية ، ولم يجدوا فيها داء ، كما لم يجدوا في أكلها حرجًا ولا إثمًا . بل صح أن النبي ﷺ ضحى بالبقر عن أهله ، كما شرع ذبحها في الهدْي والأضاحي ، وجعل البقرة عن سبعة .

فما تفسيرنا لمثل هذا الحديث ، إن لم نحمله على ما قاله ابن القيم في (الزاد) أو في (المفتاح) ؟ أعني أن الرسول قال هذا عن نوع معين من البقر ، في ظرف خاص ، وليس عن كل البقر ، وإلا لناقض القرآن الذي جاء بحل لحم البقر في المائدة والأنعام وغيرهما من سور القرآن .

رأي ابن خلدون في الأحاديث المتعلقة بالطب :

ورأيي أن العلامة ابن خلدون لم يعْدُ الصواب حين قال : إنّ الطب المنقول في الشرعيات ـ يعني المنقول في السنّة ـ : من هذا القبيل ، (أي ليس من باب تبليغ الرسالة ، كما عبر الدهلوي) ، إنما هو من باب ما جرى على العادة والجبلّة . يقول في (مقدمته) الشهيرة :

«وللبادية من أهل العمران : طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ، متوارثًا عن مشايخ الحي وعجائزه ، وربما يصح منه البعض ، إلا أنه ليس على قانون طبيعي ، ولا على موافقة المزاج ، وكان عند العرب من هذا الطب كثير ، وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كَلَدة وغيره » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل ، وليس من الوحي في شيء ، وإنما هو أمر كان عاديا للعرب . ووقع ذكر أحوال النبي ﷺ ، من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجبلة ، لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل . فإنه ﷺ إنما بعث ليعلمنا الشرائع ، ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات ، وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع ، فقال : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » ، فلا ينبغي أن يحمل شيء من الطب الذي وقع في الأحاديث الصحيحة المنقولة على أنه مشروع (أي مأمور به) فليس هناك ما يدل عليه ، اللهم إلا إذا استعمل على جهة التبرك ، وصدق العقد الإيماني ، فيكون له أثر عظيم في النفع . وليس ذلك في الطب المزاجي ، وإنما هو من آثار الكلمة الإيمانية ، كما وقع في مداواة المبطون بالعسل . والله الهادي إلى الصواب ، لا رب سواه [1] اهـ .

تصرف النبي ﷺ بمقتضى البشرية :

ومما لا ريب فيه أنه ﷺ كان بشرًا من الناس ، ولم يكن ملكًا ، وأن رسالته لم تلغ بشريته ، وأن بعض أقواله وأفعاله كانت تصدر منه بمقتضى البشرية المحض ، فليس لها أي صفة تشريعية ، مثل ما ورد أنه كان يعجبه لحم الذراع من الشاة ، وأنه كان يحب الدُّبّاء (أي القرع) فهذا وذاك أمر جبلي تختلف فيه أمزجة البشر ، فلو وجد مسلم لا يعجبه لحم الذراع ، بل يعجبه لحم الظهر أو الفخذ ، فلا ضير عليه ، وكذلك من لا يحب الدُّباء ، وإنما يحب أصنافًا أخرى من الخضراوات .

كما أنه عليه الصلاة والسلام ـ بحكم بشريته ـ يرضى ويغضب ، وقد يصدر عنه في حال الغضب ما لا يقصده من قول أو دعاء على بعض الناس ، فيجب على أهل العلم مراعاة ذلك ، وألّا يتجاوزوا به هذا المجال إلى مجال التشريع واستنباط الأحكام .

وعلى هذا الأساس فسَّر جماعة من العلماء ما رواه مسلم وأحمد وغيرهما من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال في شأن معاوية :

« لا أشبع الله بطنه » !

---

(١) انظر : مقدمة ابن خلدون بتحقيق د. على عبد الواحد وافى ج ٣ ص ١٢٤٣ ، ١٢٤٤ ط لجنة البيان العربي . ثانية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقصة الحديث كما يرويه مسلم عن ابن عباس قال : كنت ألعب مع الصبيان ، فجاء رسول الله ﷺ ، فتواريت خلف الباب ، قال : فجاء فحطأني حطأة [1] وقال : « اذهب وادع لي معاوية » قال : فجئت فقلت : هو يأكل . قال : ثم قال لي : « اذهب فادع لي معاوية » قال : فجئت فقلت : هو يأكل ، قال : « لا أشبع الله بطنه [2] ! » .

فمن العلماء من قال : إن هذا الدعاء منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ غير مقصود ، بل هو ما جرت به عادة العرب في وصل كلامهم بمثل هذه العبارات ، كقوله لبعض نسائه : « عقرَى حلقَى » ، وقوله لمعاذ برغم حبه له : « ثكلتك أمك يا معاذ! » ، وقوله : « فاظفر بذات الدين تربت يداك ! » ، ونحوها .

وهناك تأويل آخر لهذا الحديث ذكره المحدث الشيخ ناصر الدين الألباني [3] بقوله : ويمكن أن يكون ذلك منه ﷺ بباعث البشرية التي أفصح عنها هو نفسه عليه السلام في أحاديث كثيرة متواترة ، منها حديث عائشة رضي الله عنها قالت :

دخل على رسول الله ﷺ رجلان ، فكلماه بشيء لا أدري ما هو فأغضباه ، فلعنهما وسبهما ، فلما خرجا قلت : يا رسول الله : من أصاب من الخير شيئا ما أصابه هذان ؟ قال : « وما ذاك ؟» قالت : قلت : لعنتهما وسببتهما ، قال : « أو ما علمت ما شارطت عليه ربي ؟ قلت : اللهم إنما أنا بشر ، فأي المسلمين لعنته أو سببته فاجعله له زكاة وأجرًا » .

رواه مسلم مع الحديث الذي قبله في باب واحد هو « باب من لعنه النبي ﷺ أو سبه أو دعا عليه وليس أهلاً لذلك : كان له زكاة وأجرًا ورحمة » .

ثم ساق فيه من حديث أنس بن مالك قال :

كانت عند أم سُلَيم ـ وهي أم أنس [4] ـ يتيمة ، فرأى رسول الله ﷺ اليتيمة ،

---

(١) فسرها أحد الرواة : بقوله : قفدني قفدة . والقفد : الضرب باليد مبسوطة بين الكتفين .

(٢) الحديث في صحيح مسلم برقم (٢٦٠٤) .

(٣) في (سلسلة الأحاديث الصحيحة) ج ١ ص ١٢١ وما بعدها ، تعليقًا على حديث رقم ٨٢ : « لا أشبع الله بطنه ، يعني معاوية » .

(٤) أي إن أم سليم هي أم أنس رضي الله عنهما .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقال : « آنت هيه ؟ لقد كبرتِ لا كبر سنك » فرجعت اليتيمة إلى أم سليم تبكي ، فقالت أم سليم : ما لك يا بنية ؟ قالت الجارية : دعا علي نبي الله ﷺ ألا يكبر سني أبدًا ــ أو قالت : قرني ــ فخرجت أم سليم مستعجلة تلوث خمارها [1] حتى لقيت رسول الله ﷺ ، فقال لها رسول الله ﷺ : « ما لك يا أم سليم ؟ » قالت . زعمت أنك دعوت ألا يكبر سنها ، أو لا يكبر قرنها . قال : فضحك رسول الله ﷺ ، ثم قال :

« يا أم سليم ! أما تعلمين شرطي على ربي ؟ إني اشترطت على ربي فقلت : إنما أنا بشر، أرضي كما يرضى البشر ، وأغضب كما يغضب البشر ، فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل : أن يجعلها طهورًا وزكاة وقربةً يقربه بها منه يوم القيامة » .

ثم أتبع الإمام مسلم هذا الحديث بحديث معاوية وبه ختم الباب [2] ، إشارة منه رحمه الله إلى أنها من باب واحد ، وفي معنى واحد ، فكما لا يضر اليتيمة دعاؤه ﷺ عليها ـ بل هو لها زكاة وقربة ـ فكذلك دعاؤه ﷺ على معاوية . وقد قال الإمام النووي في « شرحه على مسلم » :

وأما دعاؤه ﷺ على معاوية ففيه جوابان :

أحدهما : أنه جرى على اللسان بلا قصد .

والثاني : أنه عقوبة له لتأخره ، وقد فهم مسلم رحمه الله من هذا الحديث أن معاوية لم يكن مستحقًا الدعاء عليه ، فلهذا أدخله هذا الباب ، وجعله غيره من مناقب معاوية ؛ لأنه في الحقيقة يصير دعاء له .

وقد أشار الذهبي إلى هذا المعنى الثاني فقال في « سير أعلام النبلاء » (٩/ ١٧١/ ٢) .

قلت : لعل أن يقال : هذه منقبة لمعاوية لقوله ﷺ : « اللهم من لعنته أو سببته فاجعل ذلك له زكاة ورحمة » .

---

(١) أي تديره على رأسها .

(٢) الأحاديث في صحيح مسلم من رقم ٢٦٠٠ إلى ٢٦٠٤ ط. الحلبي بتحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، رحمه الله .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واعلم أن قوله ﷺ في هذه الأحاديث : « إنما أنا بشر، أرضى كما يرضى البشر. » إنما هو تفصيل لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ . . ﴾ الآية . (الكهف : ١١٠) .

وقد يبادر بعض ذوي الأهواء أو العواطف الهوجاء إلى إنكار مثل هذا الحديث ؛ بزعم تعظيم النبي عليه الصلاة والسلام وتنزيهه عن النطق به ! ولا مجال إلى مثل هذا الإنكار ، فإن الحديث صحيح ـ بل ومتواتر ـ فلقد رواه مسلم من حديث عائشة وأم سلمة كما ذكرنا ، ومن حديث أبي هريرة وجابر رضي الله عنهما ، وورد من حديث سلمان وأنس وسمرة وأبي الطفيل وأبي سعيد وغيرهم . انظر : « كنز العمال» (٢/ ١٢٤) .

وتعظيم النبي ﷺ تعظيماً مشروعًا ، إنما يكون بالإيمان بكل ما جاء به ﷺ صحيحًا ثابتًا ، وبذلك يجتمع الإيمان به ﷺ عبدًا ورسولاً ، دون إفراط ولا تفريط ، فهو ﷺ بشر ، بشهادة الكتاب والسنَّة ، ولكنه سيد البشر وأفضلهم إطلاقًا بنص الأحاديث الصحيحة ، وكما يدل عليه تاريخ حياته ﷺ وسيرته ، وما حباه الله تعالى به من الأخلاق الكريمة ، والخصال الحميدة ، التي لم تكتمل في بشر اكتمالها فيه ﷺ ، وصدق الله العظيم ، إذ خاطبه بقوله الكريم : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (سورة القلم : ٤) . اهـ .

ويعني هذا أن بعض ما روي عنه ﷺ ، ليس بوحي من الله إليه ، ولا قصد به التبليغ عن ربه ، بل قاله أو فعله بصفته البشرية ، ولا مدخل للوحي فيه .

بعض أخباره عليه السلام ليست وحيًا :

والبحث لا يدور حول الأوامر والنواهي فحسب ، وهي التي تتعلق بها الأحكام، بل يدخل في الأخبار أيضًا .

فقد يخبر النبي ﷺ عن شيء بحسب رأيه وعلمه البشري وتجربته في بيئته ، وليس عن وحي ، فلا يصادف هذا الخبر محله ، كما أخبر عن موضوع تأبير النخل ، وأنه لا ضرورة إليه ، ثم بيّن لهم أنه كان ظنًّا منه وليس بتوقيف من الله تعالى .

ومثل ذلك إخباره عن العدوى ، وفيها قوله : « لا عدوى » وقوله : « فمن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أعدى الأول ؟ [1] » ثم إثباته ذلك في أحاديث أخرى ، مثل قوله : « فر من المجذوم فرارك من الأسد [2] » . وقوله : « لا يوردن مُمْرض على مُصِح [3] » . ونهيه عن الدخول في بلد وقع فيه الطاعون [4]. وكلها من أحاديث الصحيحين ، أو أحدهما .

وقد سلك العلماء من قديم مسالك عدة للتوفيق بين الأحاديث المتعارضة في هذا الباب . ومنهم من قال : إن الأحاديث التي أثبتت العدوى نسخت الأحاديث النافية لها ، وهي متأخرة عنها ، والمتأخر قد ينسخ المتقدم .

هذا مع أن الأحاديث الأولى من باب الأخبار ، والأخبار لا تنسخ ، لأنها إما صدق وإما كذب .

وذكر المحقق ابن القيم في كتابه (مفتاح دار السعادة) جملة مسالك للعلماء للخروج من التعارض بين ظواهر هذه الأحاديث .

والذي يهمنا ذكره منها هنا قوله :

وقد سلك بعضهم مسلكًا آخر ، فقال : ما يخبر به ﷺ نوعان :

أحدهما : ما يخبر به عن الوحي ، فهذا خبر مطابق لمُخبَره من جميع الوجوه ذهنًا وخارجًا ، وهو الخبر المعصوم .

والثاني : ما يخبر به عن ظنه من أمور الدنيا ، التي هم أعلم بها منه ، فهذا ليس من رتبة النوع الأول ، ولا تثبت له أحكامه .

وقد أخبر ﷺ عن نفسه الكريمة بذلك ـ تفريقًا بين النوعين ـ فإنه لما سمع أصواتهم في النخل يؤبّرونها ـ وهو التلقيح ـ قال : ما هذا ؟ فأخبروه بأنهم يلقّحونها ، فقال : ما أرى لو تركتموه يضره شيئًا ، فتركوه ، فجاء شيصًا ، فقال . إنما أخبرتكم عن ظني ، وأنتم أعلم بأمر دنياكم ، ولكن ما أخبرتكم عن الله .

---

(١) حديث (لا عدوى) متفق عليه عن أنس وأبي هريرة . وحديث : « فمن أعدى الأول؟ » متفق عليه أيضًا عن أبي هريرة . اللؤلؤ والمرجان (١٤٣٥ ، ١٤٣٦) .

(٢) رواه البخاري من حديث أبي هريرة .

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة . انظر : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (١٤٣٦) والممرض : صاحب الإبل المريضة بالجرب ، والمصح : صاحب الإبل الصحيحة .

(٤) متفق عليه من حديث ابن عوف . اللؤلؤ والمرجان (١٤٣٤) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والحديث صحيح مشهور ، وهـو من أدلة نبوته وأعلامها ، فـإن من خفي عليه مثل هذا من أمر الدنيا ، وما أجرى الله بـه عادته فيها ، ثم جاء من العلوم التي لا يمكن البشَر أن يطلع عليهـا البتّة إلا بوحي من اللـه ، مما كان وما يكـون ، وما هو كائن ، من لدن خلق العالم إلى أن استقر أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، وفي غيب السمـوات والأرض ، وعن كـل سبب دقيـق أو جليل ، تنـال به سعـادة الدارين ، وكل سبب دقيق أو جليل تنال به شقـاوة الدارين ، وعن مصالح الدنيا والآخرة وأسبـابهما ، مع كون معرفتهـم بالدنيـا وأمورها ، وأسباب حصـولها ووجوه تمامها أكثـر من معـرفته ، كما أنهم أعرف بـالحساب والهنـدسة والصنـاعات وعمارة الأرض والكتابة .

فلو كان ما جـاء به مما ينال بالتعلم والتفكر والنظر والطـرق التي يسلكها الناس لكانـوا أولى به منـه وأسبق إليـه ، لأن أسباب ما ينـال بالفكـر والكتابـة والحساب والنظر والصناعات بأيديهم . فهذا من أقـوى براهين نبوته وآيات صدقه ، وأن هذا الذي جاء بـه لا صنع للبشر فيه ألبتة ، ولا هـو مما ينال بسعي وكسـب وفكر ونظر ﴿إِن هُوَ إِلاَّ وَحيٌ يُـوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيـدُ القُوَى﴾ (النجم : ٤ ، ٥) الـذي يعلم السر في السموات والأرض ، أنـزله عـالم الغيب فـلا يظهر على غيبـه أحدًا إلا مـن ارتضى من رسول .

قالوا : فهكـذا إخباره عن عدم العدوى : إخبـار عن ظنه ، كإخبـاره عن عدم تأثير التلقيح ، لا سيما وأحد البابين قريب من الآخر ، بل هو في النوع واحد ، فإن اتصال الذكر بالأنثى ، وتأثره به ، كاتصال المعْدَى بالمعدي وتأثره به ، ولا ريب أن كليهما من أمور الدنيا ، لا مما يتعلق به حكم من الشرع . فليس الإخبار به كالإخبار عن الله سبحانه وصفاته وأسمائه وأحكامه .

وقالوا : فلما تبين لـه ـ ﷺ ـ من أمـر الدنيا الذي أجـرى الله سبحانه عـادته به ارتباط هذه الأسباب بعضها ببعض ، وتـأثير التلقيح في صلاح الثمار ، وتأثير إيراد الممرض على المصح : أقرهم على تأبير النخل ، ونهاهم أن يورد ممرض على مصح .

قالوا : وإن سمي هذا (نسخًا) بهذا الاعتبار ، فلا مشاحة في التسمية إذا ظهر المعنى . ولهذا قال أبو سلمة ابن عبد الرحمن (راوى الحديث) : فلا أدري أنسي أبو هريرة أو نُسخ أحـد القولين بالآخر ؟ . . فجوّز أبو سلمة النسـخ في ذلك ، مع أنه خبر . وهو بما ذكرنا من الاعتبار .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال ابن القيم :

وهذا المسلك حسن . . [1] اهـ .

نتائج مستخلصة :

وبهذا تبين لنا من خلال هذا البحث، أن من السنة النبوية المنقولة إلينا : ما لا يدخل في باب التشريع ، وإنما هو من أمر دنيانا المحض الذي ترك تدبيره وتنظيمه إلى عقولنا واجتهادنا ـ ونحن أعلم به ـ كما أن منها ما لا يحمل صفة التشريع العام المطلق الدائم ، الذي يخاطب الناس به في كل زمان ومكان ، بل قصد به حالات جزئية في ظروف معينة ، وهو ما قاله أو فعله ﷺ ، بصفة الإمامة والرئاسة التي كانت له ، فهو إمام المسلمين ورئيس دولتهم ، والقائم بأمر سياستهم ، وبيده سلطة التنفيذ، أو بصفة القضاء والحكم التي كانت له أيضًا .

والنظر إلى السنة المشرّفة بهذا المنظار الفاحص : يحل لنا كثيرًا من المشكلات في تراثنا الفقهي العريض .

مثال ذلك : ما ورد من أن النبي ﷺ قسم خيبر حين فتحها بين المقاتلين ، على حين توقف عمر رضى الله عنه في قسمة سواد العراق ، ورأى أن يقف رقبة الأرض لمصالح الأجيال الإسلامية ، يموّل من خراجها المجاهدون وحراس دولة الإسلام وغيرهم . ولهذا قال : أردت أمرًا يسع أول الناس وآخرهم ، وهو ما أشار به معاذ رضي الله عنهما [2] .

ولا يعتبر هذا مخالفة للنبي ﷺ، فإن ما فعله الرسول الكريم كان فيه الخير والصلاح في زمنه عليه السلام، وما فعله عمر كان فيه الخير والصلاح في زمنه أيضًا. وهذا ما نقله الإمام ابن قدامة في (المغني) في تعليل رواية من قال : « إن الأرض المفتوحة عنوة تصير وقفًا بنفس الاستيلاء عليها ؛ لاتفاق الصحابة عليه . قال . وقسمة النبي ﷺ خيبر كانت في بدء الإسلام وشدة الحاجة ، فكانت المصلحة فيه . وقد تعينت المصلحة فيما بعد ذلك في وقف الأرض ، فكان هو الواجب [3] » اهـ .

---

(١) مفتاح دار السعادة، لابن القيم، ج ٢/ ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

(٢) انظر كتابنا فقه الزكاة ، ج ١ ـ ٤٠٧ ـ ٤١٠ ، الطبعة السادسة عشرة . مؤسسة الرسالة .

(٣) المغني، لابن قدامة، ج ٢ ص ٥٩٨ مطبعة نشر الثقافة الإسلامية بمصر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومثل ذلك ما رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه : أن النبي ﷺ أمره حين بعثه إلى اليمن أن يأخذ في الجزية من كل حالم (أي بالغ) ديناراً ، أو عِدْلَه معافر [1] (يعني ثيابًا معافرية) .

ولكننا رأينا عمر يقدر الجزية في عهده تقديرًا آخر ، فقد قسم الذين تجب عليهم الجزية بحسب مقدرتهم المالية إلى ثلاثة أقسام :

فالموسرون فرض عليهم مبلغ ٤٨ درهمًا في السنة ، والأوساط ٢٤ درهمًا ، وذوو الدخل المحدود : ١٢ درهمًا . كما روى ذلك أبو عبيد والبيهقي [2].

وهذا ليس خلافا لسنة الرسول العظيم صلوات الله وسلامه عليه ، بل راعى الحال في زمنه ، فحال أهل الشام والعراق ليس كحال أهل اليمن ، بل هم متفاوتون ، فراعى هذا التفاوت ورتب عليه حكمه .

ولهذا روى البخاري عن ابن أبي نُجَيْح قال : قلت لمجاهد : ما شأن أهل الشام عليهم أربعة دنانير ، وأهل اليمن عليهم دينار ؟ قال : جعل ذلك من قبيل اليسار [3] .

قال الإمام الشوكاني : ولعل ما وقع من عمر وغيره من الصحابة من الزيادة على الدينار ، لأنهم لم يفهموا من النبي ﷺ حدًّا محدودًا ، أو أن حديث معاذ المتقدم واقعةُ عين لا عموم لها ، وأن الجزية نوع من الصلح [4].

ويمكن أن يقال أيضًا : إنه نوع من التصرف السياسي للرسول الكريم بمقتضى إمامته ورئاسته للأمة ، اقتضته المصلحة العامة في ذلك الوقت ، وفي هذه الحالة ، ويمكن للإمام من بعده أن يعمل بما تقتضيه المصلحة في وقته . ولا يكون بذلك مخالفًا له ، بل مهتدياً بهديه ـ عليه الصلاة والسلام ـ في رعاية المصالح حسب زمانها ومكانها وحالها .

---

(١) رواه أبو داود في الخراج والإمارة (٣٠٣٨) والترمذي وحسّنه في الزكاة (٦٢٣) وذكر أن بعضهم رواه مرسلا ، وأن المرسل أصح ، وابن ماجه في الزكاة (١٨٠٣) .

(٢) انظر : نيل الأوطار للشوكاني ، ج ٨ ص ٢١٧ وما بعدها ـ ط دار الجيل ، بيروت .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقريب من ذلك موقف الحنفية من حديث « البكر بالبكر جلد مائة ونفي عام»[1] حيث ذهبوا إلى عدم الجمع بين الجلد ـ الذي نص عليه القرآن في حد الزنى ـ والنفي ، مؤولين النفي الواقع من النبي ﷺ بأنه من باب التعزير والسياسة ، التي تختلف باختلاف الأوقات والأماكن والأشخاص والأحوال ، وأن للإمام أن يفعل ذلك تعزيرًا ، في الزنى وفى غيره ، كما نفى عمر رضي الله عنه نصر بن حجاج من المدينة ، لما سمع من افتتان النساء به ، مؤيدين ذلك بما جاء عن علي كرم الله وجهه : حسبهما من الفتنة أن ينفيا ! وما جاء عن عمر أنه غرّب رجلاً في الشراب إلى خيبر فتنصر ولحق بهرقل ، فقال رضي الله عنه : والله لا أغرّب مسلمًا [2] .

تنبيه أخير :

على أن أهم ما يجب أن ننبه عليه ، ونلفت الأنظار إليه ، في ختام هذا البحث ، هو ضرورة التدقيق وشدة التحري في التمييز بين ما جاء في السنة للتشريع وما لم يجيء للتشريع ، وما كان للتشريع العام المطلق الدائم ، وما ليس كذلك ، وما صدر بوصف الإمامة والرئاسة ، وما ليس له هذه الصفة .

فبعد إثبات مبدأ التقسيم ـ كما ذكره المحققون من القدماء والمحدثين ـ الذين نقلنا أقوالهم في دراستنا هذه : تبقى سلامة التطبيق على ما ورد في السنة ، فهنا مزلة القدم ، وهنا يقع الإفراط والتفريط اللذان لا يسلم منهما إلا من رزقه الله البصيرة ، وعمق الفهم لمقاصد الشريعة ، والربط بين كلياتها وجزئياتها ، بعد التحرر من اتباع هوى النفس ، أو أهواء الغير ، واستفراغ الجهد في البحث والاطلاع على النصوص ، ومعرفة صحيحها من سقيمها ، بغية الوصول إلى الحق ، « ومن يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين » [3] .

اللهم ارزقنا نوراً نمشي به في الظلمات ، وهب لنا فرقانًا نميز به بين المتشابهات ، ووفقنا أن نحرز الأجرين : أجر الاجتهاد ، وأجر إصابة الحق ، واغفر لنا ما زل به الفكر أو القلم ، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك ، اللهم آمين .

(١) رواه أحمد ومسلم وابن ماجه عن عبادة بن الصامت ، انظر : صحيح الجامع الصغير وزيادته (٣٢١٥) .

(٢) انظر : فتح القدير لابن الهمام ، ج ٤ ص ١٣٥ ، ١٣٦ ط بولاق ، وحاشية ابن عابدين ، ج ٣ ص ١٤٧ .

(٣) متفق عليه ، من حديث معاوية .